مرزاق بقطاش

جراد البحر

قصص

رقم النشر 81/976

الجزائر :1981

إهداء

إلى والدتي

مرزاق



عندما يجوع البشر

القصة الفائزة بجائزة رضا حوحو لسنة 1969

حي سانت أوجين :

2 جوان 1957 ، الساعة السادسة مساء .

سأله « بيدرو » فيما كانا يدفعان القارب الصغير ويسندانه الى الجدار الصخري المليس :

ـ هل نخرج للصيد غدا ؟

وبقي حسين لحظة دون أن يجيب ثم هز رأسه علامة على النفي دون أن يلتفت اليه ، وغرق فى بحر من التفكير .

كلا ، لن يخرج للصيد غدا . سينطلق من هذا الملجا اللعين الى غير رجعة ، فليس من اللائق به بعد اليوم أن يعيش عالة على بيدرو . سيترك عفونة الملجا ، وروائح البحر ، وجميع الذين يتربصون به فى كل لحظة ، سيتحدى الدوريات العسكرية التي تطوف بأحياء المدينة ، وسيتمكن من الالتحاق بصفوف الفدائيين فى حي القصبة . انه لا يجد معنى لحياته الا فى مغادرة هذا الملجا العفن الى غير رجعة .

وقطع عليه بيدرو تفكيره ملحا عليه :

ـ الافضل أن تخرج غدا لكي تسري عن نفسك ، فبقاؤك ها هنا لن يزيدك الا قلقا .

لم تكن بحسين أيما رغبة فى التحدث ، فقد كان قلقه يزداد حدة وألقى على بيدرو نظرة خاطفة وقال :

ـ كلا ! انني لن أخرج للصيد غدا ، فلدي ما أفعله .

وارتسمت علامات الدهشة على وجه بيدرو ، وحدق فى حسين محاولا أن يستشف ما يجول بخلده ، وسأله :

ـ ما الذي تنوي القيام به ؟

خلل حسين شعر رأسه بكلتا يديه . ونظر فيما حوله باشمئزاز :

ـ ستعرف فيما بعد .

وحاول بيدرو استدراجه لكي يفضي اليه بما يصطخب به ذهنه من مشاريع لكن محاولاته ضاعت سدى أمام اصرار صديقه ، فلم يملك آخر الامر الا أن يقول :

ـ اذن ... سأذهب الى عملي غدا ، وسأتركك وحيدا ..

ولم تبدر عن حسين أية كلمة ، فقد كان يشعر بنوع من الامتعاض يجبره على السكوت ، مع أنه كان يدرك فى قرارة نفسه أن سكوته يبعث بيدرو على التبرم .

كانت أدوات الصيد ملقاة على الصخرة ، فراح بيدرو يجمعهـا . ويضعها فى قفة صغيرة . وكان يدندن لحنا اسبانيا كعادته كلما سيطر عليه القلق . وأخيرا تناول بضع لفائف من جيب قميصه . وقدمها لحسين قائلا :

ــ خذ انها ستعينك على قتل الفراغ ...

بيد أن حسين سارع قائلا :

ــ انني سأقتل الفراغ بطريقة أخرى ... فأنا فى صراع معه منذ أيام... وانني متيقن بأنني سأقهره .

وأطلق بيدرو صفيرا معربا عن اندهاشه ، وقال :

ــ لقد تغير تفكيرك خلال اليومين الاخيرين !

وأجابه حسين باصرار :

ــ نعم ، لقد تغير .. فكل شيء يجب أن يتغير ..

وغرق كلاهما فى بحر الصمت هنيهة ، ثم ما لبث بيدرو أن قال :

ــ أرجوك .. لا تغادر هذا المكان .. انهم يتربصون بك ..

وتناول قفته ، وجعل يصعد الدرج متثاقلا . الى أن غيبته العطفة الصغيرة منـه .

كانت عدة أعمدة مختلفة الاحجام تنتصب فوق الصخرة الكبيرة . وكانت البيوت البحرية التي تستند الى تلك الاعمدة غارقة فى الصمت . وكانت أمواج متطامنة تندفع عبر الاعمدة التي بدأ الظلام يتسرب اليها .

وجلس حسين على حافة القارب المنقلب الذي كان منزويا الى جدار صخري مليس ، وأشعل لفافة راح يمج أنفاسها بسرعة . كان القلق مستبدا به ، يزيد من اصراره على الانطلاق من الملجأ . وكانت الرائحة الكريهة التي تنتشر بين الاعمدة تبعثه على الغثيان ، وتدفعه الى أن يبصق بين الحين والآخر اشمئزازا . ثم انه قام من مكانه واستند الى أحد الاعمدة يجيل طرفه فى عرض البحر وفى الضفة الشرقية من خليج الجزائر .

كان السأم رفيقا له خلال الايام الاخيرة ، بل انه كثيرا ما وقع فى روعه بأنه انسان لا قيمة له ، وأنه لن يتخلص من هذا الملجأ اللعين . وكانت تهديدات الاوربيين الذين يسكنون البيوت البحرية تستحثه على الانتقام منهم والقيام بعمل ترتاح له نفسه . وبلغ من قلقه فى بعض الاحيان أنه كان يقوم فى قلب الليل من القارب الذي كان ينام تحته ويسترسل فى تفكير عميق حول مصيره الى انبلاج الفجر .

ولكن حين قــر رأيه على الانطلاق من الملجا والالتحاق بصفوف الفدائيين فى حي القصبة لم يعد يعيش الا لهذه الفكرة .

كان قد خرج من السجن قبل اثني عشر يوما بعد أن قضى فيه ثلاث سنوات عقابا على سرقة ارتكبها . وانه يذكر الآن جيدا ما قاله له مدير السجن قبيل خروجه :

ـ حذار أن تنخرط فى صفوف هؤلاء العصاة ... قد نعفو عنك اذا ما ارتكبت سرقة من جديد ... ولكن عقوبة صارمة تنتظرك اذا انخرطت فى صفوف هؤلاء العصاة .

ولم تثر كلمة مدير السجن غضبه آنذاك ، بل تقبلها كما يتقبل الطفل نصيحة أبيه .

كانت الدقائق التي تلت خروجه من السجن أسعد لحظات حياته . بيد أن الساعات التي أعقبتها وجهت له صفعة قوية أثارت قلقه وشكوكه وجعلته يصطدم بالواقع المضني . فقد تبين له أن الحياة انقلبت رأسا على عقب وأن معالمها قد تغيرت تماما . فوالدته قد قضت نحبها خلال وجوده بالسجن ، ولم يعد له أهل ولا دار تحتضنه . بل انه أصيب بخيبة أمل عندما وجد أسرة جديدة قد احتلت البيت الذي كانت تقطنه والدته .

ثم فكر فى البحث عن عمل يقيه غائلة الجوع ، غير أن مساعيه خابت ، فقد كان أرباب العمل الاوربيون يرفضون توظيفه عندما كانوا يطلعون على الورقة التعريفية التي منحه اياها مدير السجن والتي تفضح السرقة التي قام بها . فلم تكن له أوراق تعريفية سواها . وكاد يمزقها لولا أن الدوريات العسكرية التي تستوقفه بين الفينة والاخرى جعلته يدرك قيمتها . فلولاها لكان الآن فى عداد الاموات أو فى أحد المحتشدات .

نعم ! انه يذكر بالضبط ما كان يجول فى ذهنه آنذاك . كان القلق قد نال منه مبلغا كبيرا ، وأحس بالدنيا تظلم أمام عينيه ، وتلقى به فى دوامة لا ترحم . وعاوده الحنين الى فراش السجن الدافىء وأحاديث السجناء فخطر له أن يرتكب سرقة لكي يجد نفسه من جديد فى السجن بعيدا عن كل ما يقلقه ويحول دونه ودون العيش . وسرعان ما أنحى باللائمة على نفسه للضعف الذي اعتراها . وتشجع لتذليل العقبات التي قد تعترض طريقه .

كان عليه أن يبدأ بالبحث عن ملجا يضمن له الراحة . فجاب جميع الاحياء والازقة التي كان يعرفها منذ صباه بحثا عن غايته ولكن دون جدوى ، وبدا له آخر الامر أن يتوجه الى شاطىء البحر عساه ينال مراده .

وانطلق من الميناء مارا بكل الاماكن التي يعرفها ، ويا لعظم دهشته عندما وجد الشاطىء الرملي القريب من حي باب الواد قد تحول الى مطار صغير تنزل فيه الطائرات العمــودية وتنتشر فيه عــدة سيارات عسكرية وسيارات اسعاف . لكنه ما ان شارف حي سانت أوجين حتى وجد نفسه يجتاز زقاقا ضيقا أفضى به الى هذا الملجا .

نعم ! انه يذكر بكل وضوح ساعة وصوله الى الملجا . كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، وكان قد اجتاز المسافة ما بين حي باب الواد وحي سانت أوجين بسرعة تحت أنظار الاوروبيين الحذرة التي كانت تتبع عليه من المقاهي ومن شرفات العمارات . وعندما اجتاز الزقاق الذي يفضي الى الملجا ، طفق سكان البيوت البحرية يتفرسونه ، والريبة تساورهم ، غير انه واصل سيره فنزل درجا صغيرا ووجد نفسه آخر الامر وسط مجموعة من الاعمدة تسبح فى الظلمة .

وارتاحت نفسه للملجا ، رغم الرائحة الكريهة التي كانت تنتشر فيه . فهو بمنجى عن مياه البحر والمطر . وشعر بالسكينة تغمره ، فجلس على الصخرة يدخن لفافة وسط الظلام ، فيم كانت أمواج البحر تتحطم بتأن على الصخرة وتندفع بين الاعمدة ، وطمأن نفسه بأنه سيحصل على كل ما هو فى حاجة اليه . سيأتي بالورق المقوى والاخشاب وسيصنع منها فراشا . وسيضمن القوت لنفسه . وخيل اليه أنه قد حقق آماله فى تلك اللحظة ، فانكمش على نفسه وقد أخذ النعاس بمعاقد جفنيه ، وان هي الا لحظات حتى تواترت على مسمعه جلبة من أعلى الدرج فلم يتحرك ، بل ازداد انكماشا على نفسه . لكنه فوجىء بضوء مصباح يدوي يبهر عينيه ، وبالركلات تأتيه من كل جانب ولا تترك له مجالا للتحرك أو للكلام .

لقد كانوا أفراد دورية عسكرية تابعين للثكنة الصغيرة المجاورة للبيوت البحرية . كان سكان البيوت البحرية والعمارة المواجهة للشارع الرئيسي قد هرعوا الى الثكنة والهلع مسيطر على قلوبهم ظنا منهم أن حسينا انما هو فدائي جاء لوضع قنبلة زمنية تقلب البيوت البحرية رأسا على عقب وتودى بأرواحهم .

وكان اليوم الذي قضاه سجينا بالثكنة كافيا لكي يكشف له عن نواياهم ، ويحرك كوامن الحقد والغضب فى أعماق نفسه ، فقد عقد العزم على الانتقام منهم ، وعندما أطلقوا سراحه أمروه بمغادرة الملجا على الفور لكنه ضرب بتهديداتهم عرض الحائط ورجع الى الملجا ساخطا ناقما .

وهاله أول الامر أن يعرض عليه بيدرو مساعدته فقد ظن أنه جاء ليتجسس عليه ويكشف عن سبب وجوده بالملجا ، غير أن روابط الصداقة سرعان ما توثقت بينهما بعد أن تبين له بأن بيدرو مشرد مثله .

فجــر 3 جوان 1957

عند انبلاج الفجر ، قام هادىء النفس ، مرتاح البال ، نشيطا ، وكأنما تبددت عنه هموم الدنيا كلها فى ليلة واحدة أو كأنه ولد من جديد . وبعد أن اغتسل بمياه البحر ، جلس على الصخرة يترقب طلوع الشمس ويجيل طرفه فى العمارات الساكنة التي كانت تظهر له عن بعد .

انه آخر يوم فى هذا الملجا العفن ، ولا رجعة له اليه فيما بعد . فلم تبق أمامه سوى سويعات ، وما أقصرها فى عمر الزمن اذا قيست بالايام التي قضاها فى الملجا . سيتوجه الى حي القصبة دون أن يشعر سكان البيوت البحرية بأنه ينطلق دون رجعة . وسيتسرب الى أزقتها

رغم الاسلاك الشائكة التي تسد المداخل الرئيسية منها ، ورغم الدوريات العسكرية التي تستوقف كل داخل اليها أو خارج منها . وسيحاول التعرف بعدئذ على الفدائيين لكي ينضم اليهم . نعم ! انه يدرك الآن خطورة ما هو مقدم عليه ، بيد أن اصراره على مغادرة الملجا جعله يضرب صفحا عن كل ما يتهدد حياته ، وهو يعلم أيضا أن الفدائيين ستساورهم الريبة فى أمره ، بل وقد يحسبونه خائنا جاء يتسقط الاخبار عن تحركاتهم لمصلحة السلطات الاستعمارية ، لكنه سيبرهن لهم عن صدق نيته وعن اخلاصه بكل ما فى وسعه .

من العسير عليه أن يرسم الآن فى مخيلته صورة عن حي القصبة ، فلقد بعدت الشقة بينه وبين الايام التي قضاها متسكعا فى ذلك الحي قبل دخوله السجن . ولكنه يدرك تمام الادراك بأن أزقة القصبة وبيوتها المسودة المتكلتة تضم فى حناياها أناسا تجمعهم وحدة المصير وتصهرهم فى بوتقة واحدة .

ولم يدر بخلده فى يوم من الايام بأن ذلك الحي العتيق سيتحدى السلطات الاستعمارية بأكملها ويوجه اليها صفعة قوية تشعرها بعمق الهاوية التي تردت فيها . ولم يخطر بباله أبدا أن اللصوص والحشاشين الذين كانوا يتسكعون فى مقاهي حي القصبة وأزقتها سيتحولون فى يوم من الايام الى رجال يكيلون الضربة القاصمة للمستعمرين .

كانت القصبة فى حصار مستمر ، الامر الذي زاد من شوقه اليها . وكان بيدرو يزوده بالاخبار عن جميع الاشتباكات التي كانت تقع فى المدينة ، فيثير خياله ويلهب غيظه على المستعمرين فى آن واحد . وعندما كانا يخرجان للصيد كان يتعمد الايغال فى عرض البحر حتى يتمكن من رؤية المدينة بأكملها أمام أنظاره . ولكن عودته الى الشاطىء فى المساء

كانت تبعثه على السأم وتشعره بأنه يهوي أكثر فأكثر فى أعماق لا قرار لها. فكان يطلب من بيدرو أن يأتيه بزجاجة خمر لتنسيه واقع حياته .

ولكن ها قد جاء اليوم !

فليبرهن لنفسه وللناس أجمعين بانه قادر على القيام بعمل يرفع من شأنه ، ويكفل له حياة يرضى عنها .

لقد قال لبيدرو منذ أيام قلائل :

ــ لقد جاؤوا عن طريق هذا البحر .. وسيعودون عن طريق البحر .. فليبرهن عن صدق نيته اذن وليحقق رغبته .

الساعة التاسعة صباحا :

كانت الشمس قد أشرقت ساطعة قوية ، وراحت تتسلق القبة السماوية . وكانت الحياة قد دبت من جديد فى كل شيء . وكان حسين جالسا على القارب المنقلب يحسب ألف حساب للدقيقة التي تشهد انطلاقه . وكان قد تعمد الانتظار حتى الساعة التاسعة لكي لا يصادف حين انطلاقه سكان البيوت البحرية فيبعثهم على الشك فى أمره . فهذا الحي الصغير الرابض عند البحر يكاد يخلو منهم فى هذه الساعة اذ انهم ينصرفون الى أعمالهم فى الثامنة .

وتأهب للانطلاق ، فمسح حذاءه بخرقة صغيرة ، وسوى من هندامه ، وصعد الدرج قليلا ، ثم دار بحركة سريعة وأجال نظراته فى الصخرة والاعمدة والقارب وكأنه يودعها . وعندما بلغ آخر الدرج توقف هنيهة ليتأكد من أن أحدا لم يره ، ثم راح يمشي بخطوات حذرة ، فألقى نظرة خاطفة على منزل بيدرو الصغير ، كأنما يودع فيه شخص صديقه ،

غير انه ما ان انتهى الى آخر الزقاق حتى أسرع من خطوه لكي لا يراه صاحب المطعم وصاحب محطة البنزين المواجهين للشارع الرئيسي فقد كانا من أشد المناوئين له .

كانت الثكنة عبارة عن دار مبنية على الطريقة التركية ، وكانت مجاورة للبيوت البحرية لا يفصل بينها وبين البحر سوى أمتار قليلة . ولم تكن تضم أكثر من ثمانية أو تسعة جنود . وربما أقيمت هناك لحراسة الحي . كان الجندي الذي يقوم بالحراسة يذرع مدخلها جيئة وذهابا ، فلم يكترث لحسين اذ أنه كان على علم بأنه يعيش تحت البيوت البحرية .

وتنفس الصعداء عندما شعر بأنه قد غاب عن أنظار الحارس وراح يسرع من خطوه ويدور من حين لآخر ليتيقن من أن أحدا لم يتعقب أثره . كانت نظراته تتنقل بين العمارات والسيارات والبحر ، وبدا له أن معالم الحياة قد تغيرت فى ظرف الاثني عشر يوما التي قضاها بالملجا . وكانت دقات قلبه تسرع وتتباطأ من دون أن يدري اذا كان ذلك نتيجة للفرحة أو للقلق الذي أخذ يساوره .

واجتاز المسافة التي تفصل ما بين حين سانت اوجين وحي باب الواد فى أقل من نصف ساعة . وغمرته موجة من السرور العارم حين وجد نفسه فى ظل العمارات يسير كغيره من الناس حرا طليقا . ولم يثر وجود الدوريات العسكرية التي كانت تجوب حي باب الواد خوفه أو قلقه أول الامر لكنه سرعان ما راح يتفاداها حتى لا تستوقفه وتكشف عن هويته . وخطر له أن يركب الحافلة ليأمن شر الوقوع بين أيديها . فوقف فى المحطة المجاورة للسوق ينتظر الحافلة بينما كان لغط الباعة والمشترين يصم أذنيه .

غير أنه لم تمض سوى دقائق معدودة على وقوفه حتى دوى انفجار هائل ، وعربدت فى الجو بضع رصاصات ، واذا به يرى المارة والباعة يهرولون والهلع مسيطر على قلوبهم يتعثر بعضهم ببعض . والفى نفسه وحيدا فى المحطة فلم يدر اذا كان يتعين عليه أن يواصل السير نحو حي القصبة أم يرتد الى الملجا . لكنه عدل عن فكرة الرجوع الى الملجا . بيد أن أسراب الجنود التي بدأت تتوافد على السوق آلرهتـه عـلى الرجوع عن قراره والهرولة مع المارة والباعة عائدا نحو الملجأ .

وود فى تلك اللحظة لو تنطلق رصاصة فترديه صريعا وتريحه من العودة الى الملجا .

الساعة الواحدة زوالا :

قال له بيدرو :

ـ لقد أتيت ببعض الطعام .

ـ ليست بي حاجة الى الاكل .

كان حسين جالسا على حافة القارب ، تجتاحـه رغبـة جامحـة فى السخط على الدنيا ومن عليها . فقد وقع فى روعه حين عودته بأنه سيقضي بقية عمره فى الملجا ، يعيش عالة على بيدرو ويتقبل اهانات الاوربيين والجنود عن طيب قلب .

ـ ما الذي فعلته صباح اليوم ؟ هل خرجت للصيد ؟

أجابه حسين بفتور :

ـ كـلا ...

وعاد بيدرو يلح عليه :

ـ الى أين ذهبت اذن ؟

ـ الى حي باب الواد ...

ـ انني لا أصدق ذلك .. فانك لو غادرت هذا الملجا لا لقوا القبض عليك بسرعة ..

ـ أنت مخير بين أن تصدقني أو أن تكذبني ...

كان بيدرو يدرك بأن حسين لم يكذب عليه . فانتظر بعض الوقت وسأله :

ـ لم ذهبت ؟

ـ لكي لا أعود الى هذا الملجأ العفن ..

ـ انك تمـزح !..

ـ كـلا .. أتظن بأنني سأقضي حياتي كلها ها هنا ؟

ـ الحق معك ...

وأخلدا الى الصمت بضع دقائق . ثم قال حسين :

ـ لقد ذهبت لكي التحق بالفدائيين فى حي القصبة ..

ـ ولم عدت ؟

ـ انفجرت قنبلة فى حي باب الواد فاضطررت للعودة ، ويجول فى ظني بأنه مقضي علي بالبقاء فى هذا الملجأ ...

ـ لا تستسلم للظنون ... فانها ستخدعك ... أتعلم ! لقد اتهمني هؤلاء الكلاب من جيراني بأنني شيوعي ، ظنا منهم أنهم سيبعدونني عن هـذا

الحي .. لكنني سأصمد فى موقفي ولن استسلم للظنون .. فتمسك أنت بما تنوي القيام به ، وستنتصر آخر الأمر ..

وسكت بيدرو هنيهة ، والغيظ يتأكل صدره ، وبيد مرتعشة من الغضب تناول أوراقه التعريفية وقدمها لحسين قائلا :

ـ انهم يحسبونني نذلا مثلهم .. تفحصها .. انني لم أغير جنسيتي مثلما فعلوا هم .. ولن أغيرها أبدا .. لقد لذت بالفرار عندما سقطت مدريد فى يد الفاشية ، وكان فى مقدوري آنذاك ان أطلب جنسية أخرى .. لكنني رضيت بالمنفى .. وسأعيش فى المنفى .. اما هم فقد باعوا أرواحهم وضمائرهم ..

لم ينبس حسين ببنت شفة ، بل راح يفكر فى أمر بيدرو وشعر بعطف متزايد على هذا الاسباني الذي رضي العيش بالمنفى دون ان يبيع جنسيته . ويا لدهشته عندما انطلق صوت بيدرو من جديد قائلا :

ـ لا تيأس .. فانك لا تزال شابا .. وأعد الكرة من جديد ..

وبحركة تلقائية ، قام حسين من مكانه واستند الى أحد الاعمدة يجيل طرفه فى عمارات حي باب الواد ، ثم انه واجه بيدرو بقوله :

ـ سأريهم ما الذي يستطيع الضحايا ان يقوموا به .. سأهجم على الثكنة .. وسأسحقهم ..

بيد ان بيدرو قاطعه قائلا :

ـ لا تندفع .. واخفض من صوتك .. ودع فكرة الهجوم على الثكنة ..

ـ كلا .. سأهجم على الثكنة .. فانا فى حاجة الى سلاح للالتحاق بالفدائيين ..

وعندما تيقن بيدرو من تمسك حسين بموقفه ، عدل عن الاسترسال فى الحديث واشعل لفافة ، ثم راح يصعد الدرج بهدوء ، ثم توقف لحظة وقال :

ـ كن حذرا .. فالخطر يحدق بك من كل صوب وحدب ..

4 جوان 1957 الساعة الواحدة زوالا :

هل تراه ينجح فى عملية الهجوم على الثكنة ؟ انه ليس يدري . وسيان عنده الانتصار أو الفشل . فالاهم هو ان يشبع جوعه النفسي . انه يعلم جيدا ان السجن أو المقصلة فى انتظاره اذا ما قدر له أن يفشل .

كان قد قضى الهزيع الاول من ليلته يفكر فى طريقة الهجوم على الثكنة للحصول على سلاح . فلم يجد آخر الأمر أحسن من مهاجمتها من ناحية البحر عند الظهيرة . ذلك ان سكان البيوت البحرية يقضون فترة ما بعد الزوال فى بيوتهم ويخلو منهم الزقاق ويتسنى له بذلك أن يفعل ما يريد .

وحاول بادىء الأمران ينطلق بقارب بيدرو ويدور حول البيوت البحرية الرابضة فوق الصخور ليهاجم الثكنة . الا انه عدل عن رأيه حتى لا يتسبب فى متاعب لبيدرو فى حالة انتصاره أو فشله . وقر رأيه أخيرا على ان ينطلق بأحد القوارب التي توجد فى الشاطيء الرملي القريب من الملجا لكي لا يتهم بيدرو بمساعدته . وما هي الا لحظات حتى كان فى الشاطيء الرملي يدفع الى الماء بقارب يملكه أحد سكان البيوت البحرية ويتناول قطعة خشبية ليستعملها كسلاح .

شعر بأن ثقلا هائلا ينزاح عن كتفه ساعة راح القارب يشق الماء . لم تكن الثكنة بعيدة عن الملجا ولكنها لم تكن مواجهة له فقد كانت بعض

البيوت البحرية تحول دون رؤيتها فآثر الابتعاد عن الشاطيء قليلا حتى لايثير الشكوك حوله . ولكنه اذ لاحظ الصمت المطبق على البيوت البحرية أسرع فى التجذيف ، ولم تمض الا دقائق حتى كان يدخل بالقارب وسط مجموعة من الأعمدة تستند اليها بيوت بحرية ويغيب فى ظلالها . وحانت منه نظرة نحو الثكنة ، فالفاها هي الاخرى غارقة فى الصمت ثم دفع بالقارب الى احدى الصخور وتناول القطعة الخشبية ، وراح يصعد درجا خشبيا بخطى حذرة . كان سور الثكنة يقوم على صخرة كبيرة ناتئة ، الامر الذي جعله يتسلقه الى نصف علوه دون جهد ، ثم انه وضع القطعة الخشبية فى حزامه وتسلق بقية السور بمساعدة عمود كهربائي ، واذا به فوق سطح الثكنة المشرف على البحر .

كانت الشمس تتوسط كبد السماء وترسل اشعتها على السطح . وكان لغط الجنود وهم يتناولون غداءهم يرتفع بين الفينة والاخرى . فتقدم بحذر فوق السطح ، ثم نزل درجا صغيرا ممسكا القطعة الخشبية باحكام ، واذا به يجد نفسه وجها لوجه مع أحد الجنود ، فما كان منه الا أن انهال على رأسه بضربة من القطعة الخشبية طرحته ارضا وجعلته يعول من الالم .

وبحركة سريعة مال عليه وانتزع منه المسدس المشدود الى حزامه وأسرع نحو الباب ، بينما هرول خمسة جنود فى اثره ، وفتح بابا خشبيا صغيرا واندفع نحو الحديقة فى اتجاه مدخل الثكنة وما ان دفعه على مصراعيه حتى ابصر بالجندي الحارس الذي كان واقفا عند المدخل ينطلق مذعورا فى الشارع لا يلوي على شيء .

لكن حسين لم يرد ان يقتفي اثره ، بل جرى نحو الرصيف المواجه للثكنة واطلق رصاصتين من المسدس نحو مدخل الثكنة جعلت الجنود

يتراجعون . كانت السيارات تسر مسرعة فى الشارع ، وحاول ان يستوقف سيارة تقله الى حي باب الواد فلم يفلح . فما كان منه الا أن هرول نحو أحد الأزقة ، بيد أن رصاصة استقرت فى كتفه . فقد راح قائد الثكنـة يطلق النار عليه من احدى النوافذ . غير أن عطفة الزقاق غيبته عن أنظار قائد الثكنة .

أين سيمضي ؟

قفز السؤال الى رأسه عندما كان يجري فى الزقاق . كان الدم قد انبجس من كتفه اليسرى فلطخ قميصه . ولم يكن الجرح غائرا الا أن الالم كان حادا . وما أن بلغ منتهى الزقاق وسار بضع خطوات فى الشـارع الكبير حتى أبصر بسيارة عسكرية تقف فى آخر الشارع وكأنما هي على موعد معـه .

وساءل نفسه ان كان سينطلق نحو قلب حي سانت أوجين . ثم خطر له ان يقفز الى مقبرة الاوربيين المجاورة للحي وينطلق منها نحو اعالي المدينة . فاستحسن الفكرة وأسرع نحو الرصيف المقابل ، وان هي الا لحظات حتى كان يتسلق باب المقبرة الحديدي ، ويقفز الى الداخل .

كانت بعض الاعشاب نابتة على عذاري الجادة المفضية الى وسـط المقبرة ، فاقتلع بعضا منها ووضعها على الجرح حتى تجف الدماء وتوقف لحظة يفكر فى الطريق التي يسلكها . هل يصعد التلة التي تنتصب فى أعاليها كنيسة « نوتر دام دافريك » ؟ كلا ، فانه سيقع بين أيديهم حالما يبلغ القمة .

كانت أشجار الصفصاف هادئة تحت أشعة الشمس تلقي ظلالها على الصلبان والقبور الرخامية . وكان جبينه يتنضد عرقا ، وأنفاسه تتواصل

من جراء الألم الذي تحدثه الرصاصة فى كتفه . وهرول بين القبور عساه يبلغ مدخل المقبرة الذي يطل على حي باب الواد وينطلق منه دون ان يعترض سبيله معترض . وما ان بلغ وسط المقبرة حتى صفرت بالقرب منه رصاصة أطلقها أحد افراد دورية عسكرية كانت تمركزت وراء باب المقبرة المطل على البحر . فقد أمر قائد الشكنة جنوده باقتفـاء آثـره ، وأرتج على حسين ولم يدر ما يفعله وأدرك بأن أقل هفوة تودي بحياته . فانكمش وراء أحد القبور يحاول ايجاد مخرج لنفسه ولكن كان ذلك عبثا فقدكانت الدوريات العسكرية قدتركزت فى كنيسة «نوتردام دافريك» التي تقوم فوق المقبرة مباشرة وفوجيء بعدد من الجنود يتسلقون سور المقبرة المواجهة لحي باب الواد وادرك بانه محاصر وبأنه لا محالة واقع بين ايديهم .

لم ينل الخوف منه أي منال ، بل انكمش حول نفسه . واعتزم اطلاق الرصاصات الباقية فى المسدس رغم علمه بأنه لا منجاة له من أيديهم . وفيم هو يتأهب للدفاع عن نفسه سمع قائد الشكنة يناديـه : « ألـق سلاحك .. وأخرج .. اننا سنضمن لك الحياة . »

ورد عليه حسين بأعلى صوته :

ـ انني أعرف سياسة الذئاب جيدا ..

وعاد صوت قائد الشكنة يلح عليه ، لكن حسين أطلق رصاصتين جعلته يخـرس .

وصوب نظراته نحو كنيسة نوتردام دافريك ، ثم أجال طرفه فى أنحاء المقبرة . وابتسم ، أيمكن أن يحشدوا له هذا العدد كله من الجنود ؟

كانت أربعة كلاب تجري نحوه ، فأطلق الرصاصات الباقية فى اتجاهها محاولا بث الذعر فيها . لكنها هجمت عليه وراحت تعضه من كل جانب فيم كان الجنود يحدقون به ويشدون وثاقه .

وعندما مثل أمام قائد الثكنة غمره شعور بالارتياح رغم الألم الحاد فى كتفه وبقية أجزاء جسده . شعور مماثل لما يحسه الجائع بعد أن يملأ بطنه اثر جوع مخيف . لقد أشبع جوعه هو ، فالموت أو السجن عنده سيـــان .

23 و 24 أكتوبر 1969

أعراس الموسم الجديد

1 ـ ريح الشمال :

كل شيء حولي ساكن لا يريم ، بيد أن الصخب يزلزل أقطار نفسي . أحيد بعيني عن سطور الكتاب ، فأرى جدتي فى مكانها ، جالسة القرفصاء تبحلق بعينها الساهيتين فى ما لست أدري . وتعود الي رباطة الجأش .

كل شيء هامد فيما حولي ، بيد أن ذهني يزدحم بالقادمين من الشمال، فلا أكاد أميز الطيب من خبيثهم . انهم يطلون علي من سطور الكتاب بين الفينة والاخرى ويريدون أن يأخذوا الطريق علي . انهم خليط من المعاول والفؤوس والصلبان واليمين واليسار والعقول الالكترونية بل وحتى من الهيبيز . ولا أجد من ملاذ ، الا نظرة استوثق بها من أن جدتي لا تزال الى جواري ، من أن تاريخي لا يزال يواكبني ويشدني اليه .

وأسائل نفسي ما الذي يعنيه الشمال ؟ ما الذي تعنيه هذه الطيور الكواسر التي تحوم فى آفاقنا ، فلا نكاد نحاول تبديد جموعها حتى نشفق عليها من سيوفنا المواضي ، من وجودنا كله دون أن ندري بأنها سوف تدهمنا يوما ما وتنهشنا بلا رحمة . ولا أجد من جواب شاف سوى جدتي الساهية مع أنه يتعين علي أن أقطع الطريق بمفردي وأحمي نفسي من كل الغوائل التي قد تعترض مسيرتي .

جدتـــاه !

فيم عساك تفكرين ؟ لقد عصرت ذهني عصرا ولكنني لم أجد رباطا بينك وبين القادمين من الشمال ! فأنت فى عالم ، وهم فى آخر ولا صلة بين العالمين سوى الرباط البشري . الكتاب يدعوني الى الشمال ، وأنت تشدينني اليك شدا لن أفلت منه أبدا الدهر . لكأنما أدركت بأن الخطر يتهددني من كل صوب . تحضرني اللحظة قولة لك عن الشمال : « لقد كنت أظن الرومي على شكل غول عند مجيئه الينا » . فما أصدق ظنك . أنت لا تكرهين الشمال لمجرد الكراهية ، فلقد درجت على تعمق الامور صغيرها وكبيرها وأدركت عن حق بأنه لا ينطوي الا على معاني الانفصام والهـــروب .

انك تكرهين حتى التعلق بعادات الشمال ، فلقد قلت لابنك صباح اليوم : « لماذا تبذر دراهمك ، اترك ثيابك لغسلها فى الدار » .

فما أحكمك يا جدتي !

وأعود الى الكتاب وليس لي من سلاح سوى جدتي الى جـــانبي ، أتصدى بها لهذه العساكر الشمالية عساني أجعلها تؤوب الى ديارها فأنعم بعد ذلك بذاتي . ان الثقة تملأ نفسي الآن بأن الطيور الكواسر لـــن تنهشني لأنني أدرك تمام الادراك بأنني أستطيع أن استأنس البعض منها لكي يكتمل بها وجودي .

الريح تهب من الشمال ، جدتاه !

اني أحس بالآخرين ينبتون كالطحالب . كل التراب يصلح لنموهـــا واكتمالها . فما أهون الطحالب ! لسوف تسفيها الريح يوما . لأنهـــا لا تضرب بعيدا فى الارض .

جدتـــاه !

كأني بنفسي فوق برج مدينة من الحجر الصلد يموت كل شيء عند أبوابها الموصدة . لدى ما أقتات به دهورا طوالا . فالخوابي مفعمة خيرات وقد ملأتها منذ قرون ولا أحسب انها ستنفد يومــا ما . ولست أخشى سوى الطحالب التي تنبت على غير هدى فهي قد تخون وجودي كله ، لأنها لا تعرف لنفسها أصلا أو لأنها تجاهلته واحتقرته . القادمون مــن الشمال يعسكرون عند أبواب مدينتي ومع ذلك فأنا لا أستعير أي سلاح لأنني أشعر به فى أعماقي ، فيك يا جدتي وفى تاريخي كله .

حدتـــاه !

الريح التي تهب من الشمال لا تخيفني ، انها لا تقتلع سوى الطحالب وتظل أبد الدهر تعول عند أبواب مدينتي ، لأنني أصررت على العودة الى ذاتي حتى أستطيع المقاومة وأقوى على الابداع .

ليتك تنظرين الى الشياطين وهي تلفظ النفس الاخير بـين سطــور الكتاب ، فلقد وجهت نحوها جيوشي التي لا تقهر فلم تستطع الثبات أمامها . ولكن ما بالك لا تعيرين نظرات جادة الى حفيدك ؟ لكأنما وثقت من أن لك مفعول السحر فى نفسه . لعلك تسيحين الآن فى التاريخ ، فى ثورة المقراني ، وفى الحربين العالميتين وفى الدروب الجبلية وفى أزقــة القصبة ، من يدري ؟

الطحالب ما أهونها يا جدتي !

والقادمون من الشمال يفتك بهم الوباء عند أبواب مدينتي الحصينة . انني أرى العفن ينخر فيهم الواحد تلو الآخر فلا يستطيعون له دفعا .

وأحسني مشدودا الى تاريخي لا تنال مني ريح الشمال .

2 ـ من يسأل عن الاموات :

المطر ينهمر مدرارا على غير هدى !

زخاته تتوالى فى العتمة صاخبة هدارة ، وأحس بها تقرع سقف البيت فى عنف وعنـــاد .

ولكن ما الذي يحبب المطر الي بهذا الشكل فى هذه الليلة الرهيبة ، مع أنني على يقين من أن الخوف لن يزايل نفسي ان هو لم ينقطع عن الهطــول ؟

. الدفء يشيع شيئا فشيئا فى فراشي الوثير ، ومع ذلك فالسكينـــة لا تنزل على نفسي . ويقع فى روعي أنني انسان بدائي انكمش فى كهفــه اتقاء للغوائل .

هل أستمر فى القراءة ؟

يا للسخافة ! وهل أستطيع التنصل منها ؟

« فكاريل شيسمان » (1) يشدني اليه شدا لا أقوى على الفكاك منه . الصفحات الاربعمائة تفعل فىنفسي ما تفعله رقى من السحر مجتمعة . انني معه فى رواق الموت أصحبه الى زنزانته 2455 ليسرد علي حياته :

« عدت زوال ذلك اليوم الى الدار . وما ان فتحت الباب حتى بلــغ مسمعي نشيج أمي . كانت كعادتها جالسة فى عربتها لا يبدو عليها انها

---

1 ـ كاريل شيسمان أحد رجال العصابات الامريكيين قضى نحبه فى غرفة الغاز سنة 1960 وقد الف فى السجن رواية « الزنزانة 2455 رواق الموت » وأعجب بها الملايين من القراء فى العالم .

مشلولة . وأدركت فورا ان أمرا خطيرا قد حدث . ثم انني أبصرت برجال الاسعاف يحملون أبي وهو فاقد الوعي . »

مسكين أنت يا كاريل ! لكأنما كانت تلك بداية عهدك بمواسم الشقاء . وما أطولها من مواسم !

« لم أجد الشجاعة الكافية من نفسي لكي أسأل أمي عن السبب . وسرعان ما خرجت دون أن أعير اهتماما لنداءاتها المتكررة . وعلمت من أحد الاطفال أن أبي قد حاول أن ينتحر بواسطة الغاز لانه لم يقو على القيام بأودنا . وهكذا أدركت اللغز الذي كان يختفي وراء أكياس الدقيق التي كانت تفد علينا من هيئة المساعدة الاجتماعية . »

مواسم الشقاء ما لها من نهاية يا كاريل ! انها تستقطب الشر بأكمله ثم تتركه يسيح على هواه . انني أكاد أجزم معك بأنه لا سبيل الى تفاديها .

صباح اليوم ، رأيت جاري أحمد يغادر داره تحت سماء تهدد بالمطر . بادرني بالتحية كعادته ، وأخبرني بأنه ذاهب للبحث عن عمل . ولم تمض دقائق على انصرافه حتى كان ابنه الكسيح يخرج من الدار ويزحف على الاسفلت البارد بحركة تكاد تكون آلية دون أن يكف عن شتم أمه المجنونة . اقترب مني وابتسم :

ـ اعطني لكي اشتري خبزا ..

بربك يا كاريل ! هل ينفع الدينار الواحد فى أن ينتشل هذا المقهور من وهدته ؟ ما أظن ، فوالدك حاول الانتحار بالرغم من أنه كان يتلقى مساعدة منتظمة من هيئة اجتماعية كبيرة . ولكنهم ما أدركوا بأن المساعدة وحدها

لا تغني ولا تسمن من جوع . فالاوضاع يا كاريل ! الاوضاع هي التي يجب قلبها رأسا على عقب .

الاموات يا كاريل لا أحد يسأل عنهم لانهم لا يؤذون أحدا !

والمطر ، أواه من المطر ، انه يزداد عنفا ، يندفع سيولا جارفة . كأني به دموع البؤساء تجمعت فى هذه الليلة الليلاء ، وراحت تقرع الارض فى عناد عسى أن تدفع سادة الارض الى أن يتذكروا بأن هناك أناسا يموتون بلا حساب أو هم على شفا الموت . ولكن ما من أحد يسأل عن الاموات يا كاريل ! انها حقيقة شمطاء ليست فى حاجة الى أن يعجنها المفكرون ويطبخها الفلاسفة من جديد .

الضعيف لا أرض له ولا وطن .

والقوة هي التي تصنع التاريخ .

والمطر ، ولا شيء سوى المطر يا كاريل .

أين يختبيء المجاهدون فى مثل هذه الليلة الماطرة ؟

وأين يذهب الاطفال المشردون ؟

ما أسخفها من أسئلة ! انها كالحجر تلقيه فى الماء فيثير دوائر لا تلبث أن تزول . ومع ذلك فدموع البؤساء لا تكف عن الانهمار .

« الزنزانة 2455 ، رواق الموت . »

ما أعجب ما يرسخ هذا الرقم فى ذاكرتي . انه يستقطب خمسا وعشرين قرنا من مسيرة البشرية فى الضفة الغربية من هذا الكون .

لن أنام حتى أفرغ من قراءة هذا الكتاب . فهو يعلمني أشياء لا يستطيع هوميروس ولا غيره أن يعلمني اياها . انه يفتح قلبي ويجعله يستجيب لكل ما فى الوجود .

« الزنزانة 2455 » ..

ها أنتذا تدخل السجن يا كاريل لانك كنت تذهب الى السوق فجر كل يوم وتسرق حتى لا تموت « هادلي » (1) جوعا .

أتذكر يا كاريل ما قاله لك ذلك الشرطي العجوز يوم ألقي القبض عليك لأول مرة : « حذار يا كاريل ، فالحضارة سوف تسحقك » . الحضارة سوف تسحقك مثلما فعلت بالهنود الحمر عند زحفها على أراضي الغرب القصيـــة .

ولكن متى ينقطع المطر ؟ متى تكف دموع البؤساء عن الانهمار ؟

سيظل المطر ينهمر ما بقيت أرض وما بقي شروق وغروب .

المطر يحور ثلجا . لقد استحالت دموع البؤساء احجارا ترتطم بالارض ولكن ما من مستجيب .

« الزنزانة 2455 » ...

لقد جاء دور « جو » المسكين ، « جو » العملاق . جاءت الحضارة فى زيها الاسود لتقفل عليه الباب فى غرفة الغاز . فما اضطرب ، بل وقف يبتسم فى سخرية للقسيس الذي جاء ليقوى من عزمه فى سويعاته الاخيرة. ما الذي يفعله سوى السخرية ! انه يعلم جيدا ان القسيس سيعيد عليه

1 ـ أم كاريل شيسمان .

قولة المسيح : « أحبوا بعضكم بعضا » ، وهو يعلم أيضا أن القسيس لن يثور لكرامة الانسان لأنه لن يجرؤ على ذلك . وليس له بد من النفاق .

وتعجز يا كاريل عن تفسير هذه المهزلة التي تمثلها الحضارة . حتى ان الدموع تتمرد ولا تطفر الى عينيك عندما ترى « جو » يعبر رواق الموت نحو غرفة الغاز .

حذار يا كاريل ، فالحضارة تتربص بك الدوائر !

انها تنين بشع يلتهم كل شيء .

فأنت لم تجد من يذود عنك هذا التنين ويفقأ عينيه المرعبتين . لقد امتنع عدد من المحامين عن النظر فى ملفك ، ويئس الآخرون من التصدي للعدالة لأنها أوقعت بهم وجعلتهم يثقون ثقة عمياء بأن قضيتك مفروغ منها :

« كاريل شيسمان : غرفة الغاز أو الصدمة الكهربائية » .

ولكن أمرك عجيب يا صاحب الزنزانة 2455 ..

الفشل لا يعرف طريقا الى نفسك المتمردة . ها أنتذا تتحدى الحضارة وتريد أن تدحرجها من عليائها وتمرغها فى التراب . مجلدات الحقوق تزدحم بها زنزانتك . انك تلتهمها التهاما لكي تقوى على مواجهة التنين وترغمه على أن يقطع الصلة بينك وبين غرفة الغاز . وقلمك يجري على الورق ليل نهار عسى أن تسمع الدنيا صوتك ، عسى أن تدب الحياة من جديد فى رجلي « هادلي » فتهجر عربتها .

ويصطدم صوتك الهدار بالحضارة ولكنه لا يضيع بددا .

وتقف أمام المحكمة والصرامة فى عينيك ، لتفلسف المجتمع الامريكي والانسان ، ورجلي « هادلي » الكسيحتين . وتخجل الحضـارة أمـام فصاحتك بل تكاد تأفل ، وسرعان ما تأخذها العزة بالاثم من جديد فتصر على أن تعيد النظر فى قضيتك .

أواه يا كاريل ! المطر لا يزال ينهمر ، والابعاد لا تزال تختلط فى ذهني.

هي ذي صورة « العربي بن مهيدي » بيسمته الانسانية وقد وقف أمام الكولونيل « بيجارد » يحطم الزيف بكلمات معدودات ، ويوجـه للحضارة ركلات رعناء فتكاد تهوى ..

أواه من المطر يا كاريل !

هوذا الكولونيل « بيجارد » ينسرب فى العتمة الى زنزانة « ابـن المهيدي » ويطعنه ..

المطر ! المطر دائما ولا شيء سواه !

ولا أحد يسأل عن الاموات ! فالقوة هي كل شيء .

ها أنتذا يا كاريل منهمك فى كتابة سيرتك الذاتية . وليتك تدري أن غرفة الغاز فى انتظارك ! ليتك تدري بأن « هادلي » المقهورة لن تغادر عربتهـا .

لماذا ترهق نفسك يا كاريل ، فالاعتراف لا ينفع . ستضيع كتاباتك سدى ، لانك مجرم فى حكم الحضارة .

---

1 ـ هو الكولونيل بيجارد قائد رجال المظلات الفرنسيين . وهو الذي اغتال العربي بن مهيدي فى زنزانة بسجن بربروس .

ولا يزال المطر ينهمر !

و « هيو » ذلك الفيتنامي الاعجوبة ما له من موئل سوى نفسه . انه يكور قبضة الارز فتستحيل حجرا صلدا يقذف به تمثال الحرية القابع في عاصمة الزيف . الارز بأكمله تحول احجارا ترتطم بالتمثال المزيف .

أوه ! ما عساك تفعله بكتاباتك يا كاريل ! حل المعادلة معروف من قديم الزمان : المرور عبر رواق الموت نحو غرفة الغاز .

« هيو » لا يزال يكور الارز ويقذف به التمثال عسى أن يحطمه . « وأم سلمان » هل تعرفها يا كاريل ؟ انها واقفة في الضفة الشرقية من نهر الاردن . الليل يكاد يدهمها دون أن ترى أثرا لابنها ، فقد ذهب يخطف البرتقال وراء الاسلاك الشائكة ولما يعد .

لقد تعلمت منك يا كاريل ان الاقزام ليس لها حق في الحياة . لانها لا تريد أن تترصد الفرص . انني اسمعها تضج بالشكوى وتلحف السؤال :

« لقد ضربونا يا هيئة الامم المتحدة .. احتلوا أراضينا .. حبسوا عنا أنفاسنا .. »

القول ما قلته يا كاريل ! فالاقزام ليس لها حق في الحياة . انها تكذب على شعوبها ، تتحذلق ، وتتمسح بأعتاب هيئة الامم المتحدة مع انها تدري تمام الدراية بأن تلك الهيئة ان هي الا حانة كبيرة لا يختلف اليها الا المعربدون الذين يفلسفون الحريات وينتظرون أن تصفق لهم الاقزام فيتفرجوا عليها .

لقد أخذ « هيو » بنصحك يا كاريل ! لكأني بك تكتب بكائيتك قبل موتك مثلما فعل « شوبان » في « مسيرته الجنائزية » (1) .

1 ــ فريديريك شوبان الموسيقي البولوني الشهير كتب مسيرته الجنائزية قبل موته .

« هيو » ما فتىء يكور الارز .

والاقزام هي الاقزام ! انها لا تزال تتصايح وتطرق الحانة الكبرى أملا فى أن يفتح لها المعربدون الباب .

والمطر لا يزال ينهمر !

وأنت يا كاريل لا تكف عن الكتابة ، فما أعجبك !

الصبح يوشك أن يتنفس ولما أخلد الى النوم .

الاقزام لن ترفع هاماتها .

والخطر يحدق بك من كل صوب يا كاريل ! وما من حيلة .

الحضارة تقودك الآن عبر رواق الموت نحو غرفة الغاز . ستسقط نقطة الغاز الخضراء من أعلى السقف ، وستختنق يا كاريل مثل « جو » تماما ، أمام أنظار الحضارة التي تتأمل تشنجاتك عبر الجدار الزجاجي .

وقد تندم الحضارة على فعلتها تلك بالرغم من أن اعترافاتك لم تعدها الى صوابها . وقد تهب الريح فتعفي على ذكرك . ومع ذلك فهذه الحضارة تصفح عن الملازم « ويليام كالي » (1) الذي يذبح شعوبا بأكملها ، لا لأمر سوى انه فعل فعلته تلك باسمها .

ولكن المطر لا يزال ينهر ! ولا أحد يسأل عن الاموات !

---

1 ـ ويليام كالي الذي اغتال العشرات من الفيتناميين .

3 ـ اعراس الموسم الجديد :

أصوات الاطفال الحادة الملونة تتصارع فى فناء المقهى . انني أحاول منذ لحظات استكناهها واستشفاف ملامح المستقبل من خلال فرجها ، لكنها تتمرد علي ولا تلبث أن تضيع فى الاثير ، ومع ذلك فأنا أشعر بأنها بشير بدنيا جديدة لا أستطيع تصوير معالمها وان كنت راسخ الاعتقاد بأنها سوف تتسم بالجد .

أواه نفسي من هذا الخليط !

على بعد امتار من فناء المقهى تقبع جماعة من السكارى تتحدى برد الشتاء وحرارة الصيف ، بينما ترقد أميرالية البحر تحت سماء غائمة تعبث فى أجوائها بعض الطيور القلقة .

لشد ما يزداد هذا الخليط تشابكا ! ان المسالك والمنافذ تلوب أمامي ، لكأنني على شفا السقوط فى هاوية لا قرار لها . الاطفال والسكارى وزرقة البحر الشديدة والطيور كلها تختلط فى ذهني ولا تريد أن تفضي لي بأسرارها .

هل من تفسير لهذا اللغز يا ترى ؟

يقال ان العرافات قادرات على فك مثل هذه الاحاجي ، وأن الذهن البشري قد يرتد فى بعض الاحيان أمام معضلة مماثلة لأن لهـا روابط بعالم الشعوذة .

اذن سأذهب الى عرافة شمطاء لتفصح لي عن مكامن هذا اللغز العجيب الذي لا أقوى على فكه عساني أجد تفسيرا مرضيا لديها .

سأقرفص رجلي أمام بخورها المتصاعد ، وأقول لها بلهجة من يتأرجح بين الشك واليقين : « أيتها البركة التي ما نزلت علينا من السماء ، ولا

نبعت من صميمنا ، رأيت فيما يرى الانسان الذي يفيق عند غبش الفجر خليطا من العوالم فعجزت عن تقصيها ، فقد خانني وجودي كله ، وبقيت حائرا مرتابا فى أمر هذا الخليط ، فما هو تفسيره » .

وستصفعني العرافة بخليط آخر من الكلمات يحرمني أبد الدهر من فك اللغز العجيب .

أواه من نفسي ما أعجزني ! انني أكاد أنسى بأن لي صلة بهذا الخليط ، وبأني لن أستطيع التنصل منه . الافضل لي أن أعود الى واقعي الى فناء المقهى ، فتهويمات العرافة لن تجدى شيئا ، لأن لعنة الخليط قد حلت بها هي الاخرى .

الاصوات الملونة تتعالى وتتشابك ، والسماء تزداد عبوسا . هوذا أحد السكارى يقوم من مكانه ، متعتعا ويغني ويصفق . فما أشقاني فى هذا الخليط . لكأني بنفسي توحي الي بأن لكل معضلة حلا فلا مهرب من مواجهة الواقع اذن .

« بالامس القريب فقط عندما كنت أتجول عند الشاطيء ، صادفت كهلا أشيب الرأس وقد تعتعه السكر ، ولكن لم يذهب بعقله . أردت ممازحته لكنه تفحصني بجد ، فعجبت من أمره وعهدي بالسكارى يرغبون الممازحـــة .

ــ أتراك شربت زجاجة واحدة أم اثنتين ؟

ــ هه .. وهل تكفيني زجاجة واحدة ؟

وأردت أن أشعره بأنه يقتل نفسه قتلا بطيئا ، لكنني فوجئت به يزوى ما بين حاجبيه ويقول :

ـ لست أنا الذي يقتل نفسه وحده ، بل كلنا على شاكلة واحدة ، نرتكب الاخطاء ولا نشعر بها تماما .

لم أفهم من كلامه شيئا ، فوجهت ناظري نحو الافق ظنا مني أنه بدأ يهذى ، لكنه تنهد وقال :

ـ اسمع يا بني .. كلنا ضائعون .. وكلنا فى الطريق الصواب فى آن واحد ..

وأغلق علي كلامه . فلم أشأ فى مواصلة حديثي معه ، وتهيأت للانصراف لكنه شدني من كتفي وأردف قائلا :

ـ ان الطريق واضحة أمامنا .. لقد ضعنا طويلا .. قرونا عديدة .. وسنضيع ان نحن لم نعد الى أنفسنا ..

وجعلت أقلب كلامه ، وأقايسه بحالته ، فعجبت لذلك المخمور الذي يدرك كل شيء ولا يستعصي عليه الواقع .

ـ اسمع يا بني .. انني سكير ، ولكنني أعرف أين توضع قولة الصواب . »

أواه من نفسي ، من فناء المقهى والسكارى والاطفال . أشعر بأن كل شيء يدور ويختلط أمام عيني وفى تضاعيف فكري . الاطفال والسكارى والمثقفون واللصوص وغيرهم ، كلهم موكب واحد يجب أن يزحف الى الامام ، وهل من موكب آخر يضمهم ؟

« ألم تكن « روزا » الشحاذة ، السكيرة جزءا من هذا الموكب المحتشد ؟ بلى ! فهي الاخرى كانت تعرف الحقيقة ، ولكن لا تقوى على مجابهتها ، لانها كانت فى حاجة الى من يرغمها على الاخذ بها . انني لن

أنسى ما بقي الوجود وجودا قولتها لي بكرة ذلك اليوم الشتوي وقد صادفتها تقوم من أحد الارصفة وبين ذراعيها قطة تشاطرها حياتها :

ـ الويل لي .. لقد قضيت عمري كله أغني فى مرقص .. وأملأ جيب أحد الفرنسيين .

لم تكن روزا تلك الا فتاة جزائرية جرفها السيل فلم تقـو عـلى مواجهتـه .

أواه من نفسي ! ما أكثر ما أطرحه من أسئلة .. انني اعترف بأننـي ملحاح لكنها ضرورة يجب أن استمسك بها والا خلا وجودي من كل معنـى .

انني بدأت أومن بأن هذا الخليط ليس سوى البشارة الاولى لدنيا جديـدة .

ثم هؤلاء الاطفال ! ماذا دهاهم ؟

أهم أيضا جزء من هذا الخليط ؟ وهل من مهرب لهم ؟

« تذكرني اللحظة صورة أطفال حينا وقد اجتمعوا حاملين المعـاول والفؤوس لكي يسووا قطعة من الارض بني عليها نصب تذكاري للشهداء على شكل نجمة وما ذلك الا لأن النصب حال بينهم وبين لعبة الكرة . ما أعجب هؤلاء الاطفال ! انهم يبلورون كل شيء . انني أراهم وهـم يقتلعون قطع الاصداف البحرية واحدة تلو الاخرى من النصب وما أدركوا بأنها كادت تودي بحياة أربعة منا عندما ذهبنا لالتقاطها من الشواطيء أيام المنظمة الارهابية الفرنسية » .

صرخات الاطفال فى فناء المقهى تتوالى أكثر حدة . لكأني بها تدق أبواب المستقبل فتنفتح دونها . والقهوجي يحاول عبثا أن يبدد شمل

الاطفال فلا يلقى الا التوبيخ من جماعة السكارى الرابضة على بعد أمتار من المقهى ، فقد ساءهم أن يحرموا من هذه التباشير .

أتراني عثرت على الحل الصحيح ؟ لا أستطيع أن أجيب بالنفي لاني فى طريقي الى هذا الحل ، انني أحس باقترابي منه . لكم يبهج نفسي الآن بأنني عزفت عن الاخذ برأي العرافة ، فقد بدأت أنبذ كل ما هو عجوز لا طائل من ورائه .

الى جانبي كهلان جالسان الى طاولتهما وقد انبسطت أمامهما جريدة « لوموند » فراحا يتحدثان عن حريات الشعوب والعالم الاشتراكي . ومع ذلك فأمرهما لا يهمني . كل ما أحاوله الآن هو أن ألم شتات هذا الخليط وأتعقب الخيط الرئيسي منه . ما الفرق بين هذا الخليط وذلك الزحف الهائل على الاراضي الغربية الذي شاهدته فى أحد الافلام الامريكية ؟ تحضرني الآن قولة بطل الفيلم وهو يخاطب أحد الشيوخ : « لا تتذمر يا عجوز .. انها الحضارة تتقدم .. انه عالم جديد يولد . »

ان هناك تماثلا بين هذين الوضعين ومع ذلك فأنا لا أعتقد بوجود علاقة بينهما . فالاول ليس الا تدرجا فى مواكب الحياة أما نحن فنوجد فى عملية مخاض ، والمخاض ليس معضلة . انما المعضلة فى ذهني الذي راح يعقد مقارنات لا فائدة منها . اننا على عتبة الدخول الى عالم جديد . وهذا الخليط ليس فى جوهره الا ألما من آلام المخاض التي نعاني منها .

اذن ، فنحن من الخليط نفجر مواسم جديدة ! أليس كذلك أيتها الصرخات الحادة ، والسكارى والسماء العابسة ؟

سبتمبر 1971

برج الجوزاء

صدر عنه زعيق طويل أخرج على اثره ما فى جوفه . وسرعان ما شاعت رائحة الحموضة فى المكان . ظل لبضع دقائق تحت رحمة دوار عنيف . على مقربة منه فى المنحدر الطويل راح زميله يرسل ضحكة هستيرية منافقة وسط العتمة الحالكة . فقد شاقه أن يرى صاحبه وهو يتقيأ الخمرة التي شربها والسردين المشوي الذي صاحب به الخمرة .

ظل رأس ن .. متدليا على صدره لا يقوى على رفعه . ثم أحس بنوع من الالتهاب فى خياشيم أنفه ، فقد اندفع القيء من جوفه وخرج من الفم والانف ، ولو وجد فى الرأس منافذ أخرى لفعل . جعل يستبين كتلة القيء فى العتمة ، فلا يصله منها سوى حموضة شديدة اختلطت بالسردين والبيض المسلوق .

ـ كذابون ...! انهم يكذبون فى الصحف دائما .. أترى ان هذا هو عيد ميلادي .. يا كريم ؟

قطع كريم ضحكته الهستيرية وجلس القرفصاء على أرض المنحدر . ثم أخذ يتطلع الى وجه صاحبه وسط العتمة دون أن يقوى على تبين ملامحه . دموع الضحك كانت تغشي عينيه .

المنحدر طويل شديد الظلمة . الى الناحية اليمنى تقوم ربوة غارقة فى الصمت والظلام تزيدها أشجار الكاليتوس حلكة . الى الناحية اليسرى تنام حاضرة سكنية تتواتر عمارة عمارة لتعانق فى آخر المنحدر الانوار القليلة التي تتبعثر فىحي باب الواد . ويأتي بعد ذلك البحر المظلم .

ـ كذابون ! لقد قالوا فى بخت برج الجوزاء ان المولودين فى هذا البرج سيظفرون بكل ما يتمنونه خلال هذا الاسبوع .. فانظر الى ما ظفرت به أنا .. لا شيء .. انظر ماذا ظفرت به فى يوم عيد ميلادي يا كريم !

وأرسل زعيقا ، ثم ادنى من فمه زجاجة خمر كانت بيده ، وأخذ جرعة طويلة .

ـ سوف تتقيأ أمعاءك هذه المرة ..!

ـ لا يهم ...!

وعاود زعيقه .

ـ ستوقظ سكان الحاضرة ..

خطا ن ... خطوات مترددة فى المنحدر ، وفتح يديه وسط العتمة :

ـ أريد امرأة ..! أريد امرأة فى ليلة عيد ميلادي هذه ...

قفز كريم يحاول اسكاته .

ـ اياك ... انك سوف تبيت الليلة فى السجن ..

ثم أرسل ضحكته الهستيرية ، فجاءت أطول من المعتاد هذه المرة . ثارت ثائرة ن .. وصرخ :

ـ أريد امرأة يا ناس .. أريد امرأة أيها النائمون ..

الحاضرة السكنية نائمة . بعض الانوار تشع من ساحاتها الضيقة انها تبدو وكأنها حاضرة رومانية بأحجارها الضخمة .

أسند كريم كتف ن ... الى ذراعه ، وهمس فى أذنه :

وسكت لحظة ، ثم صرخ :

ــ لقد فاتك الحظ !..

ظل ن ... ممسكا بالزجاجة فى يده باحكام ، يحاول أن يدنيها من فمه ، فيمنعه كريم .

ــ أريد امرأة ..

ــ انك سكران .. كان عليك أن تبحث عنها قبل أن يتعتعك السكر ..

انطلقت فى العتمة ضحكة كريم الهستيرية ، فلم يتمالك نفسه ، وأثر عليه ثقل ن ... ، ثم وقعا معا على الارض ، وانكسرت زجاجة الخمر .

أخذ ن ... يستنفز جيوب أنفه كمن يحاول أن يمسح المخاط . ادرك كريم ان حركته تلك كانت اشارة الى انه فى أشد غضبه . لذا لم يجرؤ على ارسال ضحكته هذه المرة ، بل جعل يتودد اليه ، ويحاول مساعدته على الوقوف .

ــ دعني .. انني أريد امرأة ...

ــ أريد امرأة .. يا ناس !

ثم فتح يديه ، وأخذ يدور حول نفسه :

ــ حزب الكونتوار والبييرة اتنحي الدمار (1) .

1 ــ اغنية انعغرت بعد الاستقلال مباشرة « حزب الثوار واحنا محينا الاستعمار » وكان السكارى يحرفونها : (حزب الكنتوار (البار) والبيرة اتنحي (تزيح) الدمار (الهم)

وان هي الا هنيهة حتى ساد صمت عجيب خيل الى كريم انه صمت مفتعل . لذلك بادر الى مساعدة ن ... وجعلا يخطوان بتثاقل فى المنحدر .

ـ الغريب .. ان السيارات لا تمر من هنا هذه الليلة ..

ـ هـمـمـ ...

ـ لعل السواق حزنوا لمصيرك !

وانطلقت الضحكة الهستيرية من جديد ، ثم غابت فى فضاء ربوة الكاليتوس الحالكة . فى آخر المنحدر كان نور عمود كهربائي ينتشر بقوة فيضيء عمارة مواجهة له .

ـ بضع دقائق ونصل الى الدار ..!

ـ أريد امرأة .. لن يضيع عيد ميلادي هكذا !

ـ لقد انخدعت بما قاله البخت ..!

عاود ن ... زعيقه ، ومسح المخاط عن أنفه بحركة من كم قميصه .

ـ رائحتك حامضة ..

ـ لعنة الله على أمك .. أريد امرأة ..

لم يرسل كريم ضحكته ، بل شد ن .. من معصم يده اليسرى بكل قوة ، وانطلق يجره فى المنحدر ، يهرول فينة ويتعثر أخرى . ولم يستطع ن ... مقاومته ، بل راح يتبعه مذبذب الخطى دون أن يكف عن ارسال زعيقه .

عندما دخلا دائرة الضوء الذي ينشره العمود الكهربائي ، جعلا يلهثان معا . ثم انزوى ن ... جانب العمود الكهربائي وأخذ يتجشأ . ويحرك رأسه بعنف .

اقترب كريم من ن ... ، فوقع العمود الكهربائي على وجهه ، وازداد آنئذ اصفرارا وشحوبا . ضحكته الهستيرية ارتسمت على شفتيه ، لكنه لم يجرؤ على ارسالها خوفا من أن يوقظ سكان العمارة المقابلة .

تزحزح ن ... من مكانه بجهد ، فنظر اليه كريم ، وجعل يشير بكلتا يديه الى سحنته .

ــ انك مخيف بشكلك هذا ..

كان ن .. ممتقع الوجه ، منفوش الشعر ، وبدا أنفه أكثر تفلطحا من المعتاد . بقع وردية اللون كانت تلطخ قميصه ، كانت من آثار القيء .

ــ انك مشؤوم أيها اللعين . لولاك لكنت عثرت على امرأة فى هذه الليلة تصاحبني فى عيد ميلادي ..

ــ اخرس .. ! الناس نائمون . !

طفق ن .. يدور حول عمود النور الكهربائي بعينين أثقلهما السكر . شفته السفلى كانت تتدلى ، وتظهر زرقاء اللون تحت النور . ثم انه استند بظهره الى سور بني أسفل ربوة الكاليتوس حتى يحول دون انجـراف التربة وحملق فى كريم الذي وقف على بعد خطوات منه :

ــ اسمع .. اذهب واصطحب سيارتك . سنذهب للبحث عن امرأة

ــ دعك من الهذيان . ان الدار على بعد متر . انها تنادينا للنوم ..

أغمض ن .. عينيه ، ثم مسح المخاط بكم قميصه . وبحركة متمهلة ، أخذ سكينا صغيرا من جيب سرواله وراح يتوعد كريم :

ــ سوف أذبحك الليلة .. !

لم يتمالك كريم نفسه هذه المرة ، فأرسل ضحكته مصاحبا أياها باشارات يريد أن يستصغر بها من شأن ن .. ، فى أحد طوابق العمارة المنخفضة انطلق صوت رضيع ، ثم أنيرت احدى الغرف :

ــ الافضل لنا أن ننصرف من هنا ..

بيد أن ن ... ظل مستندا الى السور ، يفتح عينا ويغمض أخرى ، والسكين لا يزال فى يده .

ــ ابحث لي عن امرأة والا ذبحتك ..

الحي السكني فى هذه الناحية من المنحدر تنتشر فيه بعض الاضواء . وربوة الكاليتوس تفسح المجال لجانب من مقبرة « القطار » .

ابتسم ن ... كأنه نسي ما يريده ، ثم أرسل ضحكة رنانة :

ــ ما أعظم السكن فى مواجهة المقبرة !

ــ انك تهذي ..

تحرك ن ... من مكانه ، رافعا سكينه فتراجع كريم .

ــ ألا توافقني يا ابن الكلبة بأننا نسكن أجمل مكان فى الدينا

الى يمين ن .. ظهرت بعض شواهد القبور ، وقد ظللتها أشجار الزيتون .

ــ انه مكان مخيف .

ــ انك جبان وقذر .

زم كريم شفتيه ، فلم يكن يدري ما يقوله أمام تهجم ن ... ، وخطا بضع خطوات ، ثم استدار فجأة :

ـ تذكرت شيئا هائلا . سوف تشتري لي أمي سيارة أخرى ..

ـ قلت لك أريد امرأة ...

ـ سوف تتزوج أمي جزارا تعرفت عليه أخيرا .

ومسح كريم يديه ، ثم مرر لسانه على شفتيه :

ـ انه جزار غني ..

جعل .. يخلل شعر رأسه فى تثاقل ، ويتجشأ :

ـ أمك ماهرة جدا ..

ـ وأمك أنت .. كيف هي ؟

أمال ن ... رأسه نحو كتفه اليمنى :

ـ أنت تعلم انها تسكن قصرا من قصور هذه المقبرة ..

ظهر التعب على وجه كريم . فلم يجد وسيلة يدفع بها ن ... الى مغادرة المكان . وما عتم أن أطلق ضحكته الهستيرية غير آبه بما قد يحدث له لو أفاق سكان الحي . وانطرح أرضا ، وقد كاد يختنق من ضحكته ، وحاول فى تلك اللحظة أن يتفرس فى وجه ن .. الذي وقف بالقرب منه جاحظ العينين ، دون ان تغادر يده جيب سرواله حيث يوجد السكين :

ـ ما الذي يضحكك يا ابن الملعونة ؟

بيد أن كريم ازداد انكماشا حول نفسه من الضحك ، بل انه أخذ يكمش رجليه بصورة تلقائية حتى كادتا تلاصقان ذقنه . ثم ان ضحكته

استحالت الى ما يشبه الانين بعد أن خاتته أنفاسه وطفرت الدموع من عينيه ثم نزلت على خديه .

ــ انك مجنون يا ابن الذئبة .. ما الذي اصابك ؟

وعاد كريم الى ضحكته ، بيد أن ن .. قطع عليه السبيل بقوله :

ــ سوف أسحبك الى المقبرة وأرغمك على ان تنام بجانب احدى القبور ...

وما لبث أن هب واقفا على قدميه ، وقد أثرت فيه كلمات ن ..

المقبرة أكره مكان فى الدنيا . على ذكر الكلمة تعبر خياله صور الموتى والهياكل العظمية . انه لا يحب أن يسمع عنها شيئا ، حتى أفلام الرعب يتفاداها لهذا السبب ، قد يحتمل مثل هذه الاحاديث فى النهار ، ولكن اذا هبط الليل ، فانها تصير من المحرمات .

أخذت رجلاه ترتجفان ، وقد تذكر أن المقبرة على بعد امتار منه . كان يظن أن السيارة التي أقلتهما توصلهما الى بيته . بيد ان السائق اشمأز من ضحكته ، ومن هذيان ن .. فاصر على انزالهما فى أعلى المنحدر . وهو لم ينزل المنحدر مع ن .. الا على مضض ، ولولاه لكان اتخذ سبيلا آخر الى بيته يعفيه من رؤية هذا المنظر .

ــ أرجوك .. دعنا من مثل هذا الحديث ..

أرسل ن .. ضحكة مكورة كأنها صوت حجر كبير يتدحرج من ربوة ، وألقى نظرة جانبية على كريم وآثار الضحكة لا تزال مرتسمة على وجهه :

ــ ليس أجمل فى الدنيا من المبيت عند رأس قبر فى هذه الليلة الدافئة .

تراجع كريم دون أن يحيد يناظريه عن ن .. ، الذعر انتشر فى اعماقه ، ومع الذعر تسرب نوع من الاشمئزاز الى نفسه . لم يعد خلال الايام

الاخيرة يحتمل ممازحات ن .. يحاول أن يتقيها ، لكنها تتسرب الى مطاوي نفسه من حيث لا يعلم وتفعل فعلتها . ما أقذرها من ممازحات ! لولا نور العمود الكهربائي لوقع هذه اللحظة مغشيا عليه .

ـ ما لك ترتجف يا بطل ! ..

ومرت لحظة صمت ، حاول كريم خلالها ان يستجمع قواه :

ـ أنا لا أرتجف البتة ..

وضرب ن .. يدا بيد ، وأرسل ضحكة قصيرة :

ـ انك تكاد تذوب خوفا ..

ـ كف عن الهذر ..

ـ لقد قلت لي ذات يوم انك حملت السلاح ، وكنت من الاوائل الذين هجموا على الاحياء الاوربية بعد الاستقلال ..

ـ كف عن الهذر ..

وكانت ضحكة ن .. هذه المرة طويلة ، وهو يواجه المقبرة :

ـ لعلك حطمت بعض الهياكل العظمية .. أليس كذلك ؟

ـ انك تدوس كرامتي ..

ـ وهل لديك كرامة أنت ؟ فى أي سوق اشتريتها ؟

ثم همهم ن .. وتجشأ

ـ اسمع ، لنغادر هذا المكان .. أخشى ان يكون أحد سكان الحي قد أخطر الشرطة بوجودنا هنا .

قطب ن .. حاجبيه ، ثم ضرب صدره بجمع يده :

ـ انك هنا معي . فلا تخش احدا . حتى القبور نفسها !

ـ اياك .. لا تستفز الاموات ..

هبت نسمة قادمة من البحر فحركت هامات شجر الزيتون الذي ينبت عند حدود المقبرة . واصطفقت رجلا كريم :

ـ انني سأهرب .. فالتحق بي ان أردت ..

بيد أن ن ... القى ذراعه القوية على كتف كريم ، واستند اليه بكامل جسده ، ثم جعل ينظر من عل :

ـ انك لن تهرب .. أرواح الموتى تطوف بالحي فى الليل ..

أنشأ كريم يرسل أنينا متقطعا ، فتوعده ن .. ثم انه توقف عن انينه خوفا من ان يسحبه الى المقبرة عنوة . وندم فى تلك اللحظة على فوات فرصة الهروب . ولكن ما باله لا ينتهز الفرصة الآن ويطلق العنان لرجليه ؟ واستسلم للفكرة فحاول ان يتحرك ، الا انه شعر بجسد ن .. الضخم يزداد ثقلا على كتفيه ويكاد يحول بينه وبين التنفس . ثم انه وضع رأسه بين ركبتيه فى استسلام ينتظر ان يكف ن .. عن لعبته .

ـ ألا زلت ترغب فى الهروب ؟

وطلع صوته ضعيفا :

ـ لا .. لا ..

جذب ن .. سيجارة وأشعلها دون أن يتزحزح عن كتفي كريم . أحس بنوع من الزهو فى جلسته تلك ، بينما شعر كريم برغبة فى التقيؤ بسبب

الحموضة التي كانت تفرزها ثياب ن .. ولعل حالة كريم تلك سمحت له بأن يعمل الفكر بعد أن اختفى سور المقبرة عن ناظريه ، ولم يعد يحتمل من ثقل نفسي فى تلك اللحظة بالذات . فحرك رأسه يمنة بكل صعوبة محاولا أن يركز نظرته على وجه ن .. وكاد ينفجر بضحكته الهستيرية لولا أن الجسد الضخم كان يقطع عليه أنفاسه :

ــ اسمع يا ن .. ما رأيك لو ارشدتك الى امرأة الآن ؟ ..

سحب ن .. نفسا من سيجارته :

ــ اسكت يا ابن الملعونة ..

ــ انني جاد فى كل ما أقوله ..

ساد الصمت بينهما . ومع الصمت جاءت الحيطة . أحس كل منهما أن الواحد يريد أن يلعب مقلبا على الآخر .

ــ قلت لك انني سأرشدك الى امرأة ..

انحنت قبضة ن .. القوية على رأس كريم :

ــ انك تخاف من كل شيء فكيف تريد أن تهديني الى امرأة ما ؟

بدأ كريم يضيق ذرعا بمراوغة ن .. راوده شعور بأنه أمام جبل من الكبرياء والغطرسة لا يمكن أن تنال منه كل الحيل ، وازداد هذا الشعور حدة عندما فشل فى أن يجدد الهواء فى رئتيه . فقد أحس بالهواء يتوقف فى بداية القصبة ولا يقوى على الانفلات الى الصدر ، وكبرت فى عينيه حياته فى تلك اللحظة ، فصرخ :

ــ ﺑ .. يت .. الي .. **هودية** ،،

بلغ صوت كريم المتقطع مسامع ن .. ، فأحدث فيه هزة :

ــ بيت اليهودية ..

التمعت عينان .. فرحا . فأخلى سبيل كريم ثم انه فرك يديه ، وهو يحدق النظر فى عمارة منخفضة لا يفصلها عن المقبرة اكثر من عشرة أمتار . انها هنالك فى الطابق الاول ، لعلها الآن تغط فى نومها ، وتحلم بفارس يأخذها ما وراء البحر الى أوربا . ولكن كيف خفي عليه أن بجوار البيت الذي يسكنه مع كريم فتاة رائعة مثل « ايفيت » ؟ يا له من غبي !

عاد يفرك يديه :

ــ ان أصحاب الجرائد لم يكذبوا .. لقد قالوا حقا بشأن برج الجوزاء .. ووجه ناظريه الى كريم الذي انطرح أرضا من الارهاق :

ــ هيا قم .. لنذهب اليها ..

ــ اذهب وحدك .. لن آتي معك ..

اقترب ن .. من كريم متوددا . أدرك فى قرارة نفسه ان صاحبه خير سفير له لدى الفتاة اليهودية . يستطيع أن يستدرجها دون صعوبة لا سيما فى هذا الجزء من الليل .

ــ قلت لك اذهب وحدك ..

ــ أرجوك .. سامحني يا كريم ..

وانحنى ن .. ليقبل كريم فى خديه محاولا استرضاءه :

ــ انك تفوت علي هذه الفرصة ..

وساعده على الوقوف ؛ ثم أخذ ينفض عنه ما التصق به من قيء ومن غبار :

ـ انك مجنون ..

ـ لقد كنت مجنونا معك ..

وقطب كريم حاجبيه :

ـ وسكران أيضا ..

ـ أحس بأنني أحسن حالا بعد أن تقيأت كل ما في جوفي ..

بيد أن كريم نظر نظرة جانبية الى ن .. مستصغرا اياه . وانطلقت منه ضحكته الهستيرية :

ـ أو تظن ان « ايفيت » ترضى بك ؟

وهمهم ن . وهو يفرك يديه :

ـ لقد رضيت بمن هم دوني ..

ازداد تخابثا بعد أن عادت الثقة الى نفسه . وأحس بأنه يسيطر على صاحبه :

ـ انك حامض .. حامض .. جدا ..

ـ انك تفوت علي الفرصة يا كريم ..

وأشعل كريم سيجارة ، وجعل يمج أنفاسها ببطء لكي يستفز « ن .. » ، ثم راح يغني :

ـ « حزب الثوار .. واحنا محينا الاستعمار »

ــ انك تفوت علي الفرصة يا كريم ..

ــ « حزب الثوار .. واحنا ..

وفيما كريم يغني ويصفق منتشيا ، انهالت قبضة ن .. على كتفــه ، فكادت تقطع منه الانفاس . ثم ان ن .. شده من طوق قميصه .

ــ انك ستأخذني الآن الى « ايفيت » . أتسمع ؟

ولفظ كريم سيجارته ، فقد كانت أنفاسه تتواتر من الألم ، وأذعن لمشيئة ن .. فجعل يسير متثاقلا ، يحاول أن يتفادى رؤية شواهد القبور التي انعكست على البعض منها أنوار العمود الكهربائي الملتصق بجدار العمارة التي تسكنها اليهودية . ونظر ن .. الى ساعته ، فاذا بها تشير الى الثانية والنصف صباحا :

ــ اسرع .. والا فاتت الفرصة ..

ــ ماذا أقول لها ؟ انها سوف تصرخ وتوقظ من فى العمارة ..

ــ حاول أن تستدرجها بكل هدوء ..

بلغا باب عمارة منخفضة ، فتردد كريم فى الدخول . واذا بقبضة ن .. ترتفع ، وتهدد بالوقوع على رأسه ..

ــ انني أريدها الليلة . أريد « ايفيت » ..

وفيما هما يصعدان السلم الى الطابق الاول ، طلب كريم من ن .. أن ينتظره عند مدخل العمارة لكي لا يوقظ الشكوك فى نفس الفتاة . ووافق ن .. وهو يفرك يديه . الا أنه عندما سمع الطرقات الخفيفة على بــاب الشقة التي تسكنها اليهودية تلاحقت أنفاسه ، وصعد السلم بسرعة لكي

يقف الى جانب كريم . فقد قر رأيه على فتح الباب بالقوة اذا ما تمنعت أم الفتـــاة .

ـ انك مجنون ..

وعاود كريم الطرق على الباب ، وهو يحاول أن ينظر من خلال ثقب المفتاح الى ما يجري فى الداخل . لم تكن حركاته تشي بالقلق ، لكأنمــا كان على موعد مع أهل الدار . والواقع انه وهو يصعد السلم ، خطط فى ذهنه ابعاد العملية ، حتى بات من اليقين فى نفسه انه لن يفشل . بل انه أحس بنوع من السرور يرعش جسده عندما راح يطرق الباب ، ويتخيل الفتاة اليهودية وهي تصرخ هلعا بين يدي ن ..

ـ انها قادمة .. انني أسمع خطواتها ..

اعتدل كريم فى وقفته ، وأبعد ن .. بحركة سريعة من يده .

ـ من ؟ ..

تنحنح كريم بصوت مسموع :

ـ هل أنت أم « ايفيت » الممرضة ؟

ـ نعــم ..

ـ افتحي يا سيدتي أرجوك .. ان أمي فى حالة خطيرة .. وهي فى حاجة الى حقنــة .

ـ من أنت ؟

ـ انني أسكن بجواركم يا سيدتي . فى العمارة السفلية المواجهــة للساحة الكبيرة ..

ترددت الام اليهودية فى رواق بيتها ثم قالت :

ـ هناك ممرضة أخرى تسكن العمارة المجاورة لكم ..

ـ لم أجدها يا سيدتي . انها تقوم بدورتها الليلية فى المستشفى .. تجشأ ن .. ثم قال بصوت مهموس :

ـ الملعونة .. سوف أكسر الباب ..

والتفت نحوه كريم ، ورجاه أن ينزل الى باب العمارة . بيد أن ن .. انكمش على نفسه وسط العتمة :

وفيما هما يتبادلان الهمس ، تسربت خيوط الضوء من أسفل الباب وارتفعت همهمة فى الداخل ، فعرف كلاهما أن الام اليهودية قد ايقظت ابنتها . غير ان ن .. أصر على البقاء فى مكانه مخافة أن يتراجع كريم عن خدعته تلك ويخبر الام اليهودية بما حصل له .

وفتح الباب قليلا ، فاندفعت صفحة عمودية من الضوء .. وأطل من الباب الموارب وجه الام المستدير ، ذو العينين الواسعتين المنتفختين من أثر النعاس . واقترب كريم من الفتحة حتى لا تقع أنظار اليهودية على ن .. فترسل صرخة الهلع وسط السكون .. بيد أن اليهودية ظلت فى مكانها تنقل نظراتها فى وجه كريم الشاحب .

ـ أرجوك .. يا سيدتي .. أيقظي ابنتك بسرعة .

ـ لقد أيقظتها ..

ثم انها فتحت الباب دون أن تقع أبصارها على ن .. الذي ظل وسط العتمة . ودخل كريم فى أثرها وترك الباب مواربا

ـ ايفيت .. اسرعي يا ابنتي ..

ـ نعم ..

كانت الفتاة فى غرفة نومها قد ارتدت ثيابها بسرعة . وجعلت تجمع أدوات التمريض وتضعها فى حقيبة جلدية صغيرة . ووقفت أمها الى جوارها دون أن تبدر منها أية حركة . كان ن .. قد خطا الى الداخل فى اثر كريم ، ووقف فى الرواق الضيق ينتظر أن تطل الفتاة . ثم ان الام خرجت من غرفة نوم ابنتها ، فوقعت أنظارها على ن .. واذا بوجهها يتشنج دفعة واحدة ، فيضيق فى أعلى الجبهة ، وينتفخ عند الذقن ليفسح المجال أمام دوائر من الشحم تترسب ما بين الرقبة والشفة السفلى ، واضطرب كريم فى وقفته تلك . ثم راح يحاول تهدئة الام :

ـ لا تخافي يا سيدتي .. انه جاري ..

بيد أن الام ظلت على حالتها المتشنجة ، لا تقوى على أن تقول شيئا . فلقد حدست ان أمرا خطيرا يوشك أن يحدث . وازداد هلعها عندما اقتربت من ن .. تتفرس فى وجهه فزكمت أنفها رائحة الحموضة وجعل كريم يعض شفته السفلى قلقا ، فقد كان ينتظر فى تلك اللحظة أن تبدأ الام فى العويل ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

وأخيرا خرجت الفتاة من غرفة نومها فأبصرت بكريم . ثم انها راحت تحملق فى وجهه بعد أن تعرفت عليه .. انه يسكن الحي . وهو يعاكسها كلما رآها . وابتسمت آخر الامر وهزت رأسها بحياء . كانت نظرات ن .. آنئذ قد تجاوزت الام الهلعة أمامه ، وجعلت تمسح جسد الفتاة لكي تتسمر فى عينيها الخضراوين . وأحست الفتاة من خلال الصمت الذي ساد بأن عليها أن تقول شيئا :

ــ ماذا ننتظر ؟ .. لننطلق ..

وندت ابتسامة كاذبة عن كريم ثم قال :

ــ نعم .. لننطلق ..

وأحس فى تلك اللحظة بأنه يتخلص من عبء ثقيل . خرج ن .. متثاقلا ثم ان الام قبلت ابنتها دون أن يزايلها الرعب ولم تجرؤ على أن تهمس لها بشيء . ونزل ثلاثتهم السلم بسرعة ، ثم خرجوا الى منطقة الضوء الغامر . وسرعان ما انفتحت النافذة وراءهم وأطلت منها الام اليهودية وجعلت تنظر اليهم وهم ينزلون المنحدر حتى غابوا عن أنظارها فى عطفة صغيرة .

كان ن .. يخطو بتثاقل ، ويتجشأ وعينه اليمنى لا تكاد تحيد عن عنق « ايفيت » . أما كريم فكان مزهوا ، وان كان بين الفينة والاخرى يعض شفته السفلى اشمئزازا من تصرفات ن .. تسرب القلق الى نفس « ايفيت » عندما بلغت أنفها رائحة الحموضة ، فضغطت بحقيبتها الجلدية على صدرها ، حتى تطغى روائح الادوية والكحول على رائحة الحموضة . وتجشأن .. طويلا هذه المرة وطلب من كريم و « ايفيت » أن ينتظراه ، ثم راح يتبول عند جدار المقبرة . أشاحت « ايفيت » بنظراتها عن ن .. وحاولت أن تتغلب على خجلها :

ــ أتعاني أمك من مرض خطير ؟

ــ ه .. أظن انه مرض القلب ..

وتجمد الحوار بينهما . فجعلا ينقلان النظر فى أضواء الاعمدة الكهربائية التي كانت تنتشر فى الساحة العريضة عند أصل المنحدر . أحس كل منهما انهما قد اكتشفا ما يجول فى نفسيهما فى تلك اللحظة . ايفيت

أخذت تفتح حقيبتها الجلدية وتقفلها بحركة رتيبة ، بينما تناول كريم سيجارة من جيب قميصه :

ــ أتدخنين ؟

ــ لا ..

ثم ان ن .. التحق بهما ، وهو يمسح شفتيه بكم قميصه الايمن ،دون أن يقول شيئا . لم يكن يشعر بحاجة الى طلب المعذرة ، لقد كان يرى بخت برج الجوزاء يتحقق أمامه شيئا فشيئا .

تداركت « ايفيت » الوضع المحرج فقالت ــ :

ــ لنسرع .. لعل أمك تعاني آلاما مريرة ..

قال ن .. بسرعة وهو ينظر اليها :

ــ نعم .. انها تعاني آلاما مريرة ..

العمارة التي يقطنها كريم تواجه الساحة الكبيرة . لم يكن شعاع من نور ينبعث منها . وعندما وقف ثلاثتهم عند مدخلها رفع كريم نظره وقال :

ــ انني أسكن فى الطابق الرابع .. لعلهم اطفأوا الضوء ..

ابتسم كريم بخبث ونظر الى ن .. وهو يكاد ينفجر بضحكته الهستيرية . ثم ان ظلمة السلالم احتوتهم فجعل ن .. يحتك بايفيت وهو يلهث . وراحت هي تحاول التهرب منه وتباعد بحقيبتها الجلدية ما بينها وبينه . وعندما بلغوا باب الشقة كاد ن .. يرتمي عليها ولولا أن كريم وقف بينهما ، وهو يبتسم ويعالج قفل الباب بحركة سريعة .

الظلام يغمر الشقة ، رائحة الرطوبة تنبعث منها . وقفت ايفيت عند المدخل وصدرها يعلو وينخفض من الخوف فرجاها كريم أن تتقدم ، ثم أخذ حقيبتها الجلدية

ــ أين المريضة ؟

تنحنح كريم ، وفتح باب غرفة النوم :

ــ انها هنا ..

وانزوى ن .. يخلع نعليه . ثم أرسل ضحكته المكورة وقال :

ــ انها نائمة ..

بيد أن « ايفيت » وضعت يدها على فمها هلعا . وجحظت عيناها ، وهي تنقل نظراتها فى غرفة النوم دون أن ترى أحدا . وكادت تنطلق بالصراخ لولا أن ن .. وقف الى جانبها والسكين فى يده :

ــ اياك أن تصرخي ..

تجمدت الدموع فى عينيها وهي تحدق فى وجه ن .. ، وأخذ هو يقترب منها وقد ند عنه ما يشبه الفحيح :

ــ انه عيد ميلادي .. الليلة بلغت احدى وعشرين سنة .

ــ آه يا أمي ..

ــ انه برج الجوزاء . ان الصحف صادقة فى تكهناتها .

وارتمى عليها وهو يئن ، كأن ألما حادا ينهش جسده . وانطلقت ضحكة كريم الهستيرية طويلة ملجنة كأنها صاعدة من بئر لا ماء فيها .

11 يناير 1974

الخروج من المنطقة الخطيرة

شمس يناير حنون وحلوة ، تداعب كل شيء فى الزقاق ثم تختفي وراء كتل من السحب الثقيلة . الكرسي المتهالك الذي يجلس عليه يئن بين الفينة والاخرى . عيناه مغمضتان ، تطرفان كلما احتجب قرص الشمس . ويلوب أمامهما الجدار المقابل . على ركبتيه تستلقي مجلة ذات غـلاف رمادي اللون . تعبث أصابعه بصفحاتها فى حركة رتيبة .

ـ ألديك السكر ؟

ـ كـلا ...

شعر بالظل الى جانبه الايسر ، ففتح عينيه . كان الحانوتي واقفا يرسل تنهيدة طويلة .

ـ الناس يبحثون عن السكر وهم يعلمون أن الدولة تشرف على كل شيء .

سحب الحانوتي صندوقا فارغا من دكانه وجلس عليه عند العتبة :

ـ الشمس حلوة ..

ـ نعم ..

صلب الحانوتي رجليه . صلعته التمعت تحت أشعة الشمس .

ظل الفتى مغمض العينين ، مستندا برأسه الى جدار الدكان . لم تكن به أية رغبة فى قراءة المجلة ، فقد استسلم للشمس الدافئة . تحايل على نفسه حتى لا يفتح المجلة ، ووجد الشمس نصيرا له . « القراءة سوف تطوح بي فى متاهات من التساؤلات . وان كانت هذه التساؤلات ذات علاقة وثيقة بالواقع الذي أعيشه . آه ! ما أجمل شموس الشتاء ! » .

خطى المارة فى الزقاق نشيطة . دفء الشمس يدفع الناس والنمل والحيوانات الى أن يخرجوا من مخابئهم ويغرقوا فى الحياة .

الحانوتي يقوم من مكانه ، ويدلف الى دكانه لكي يرتب بعض السلع. الفتى يظل فى مكانه غارقا فى دفء الشمس ، يحاول أن يسترخي استرخاء تاما . ألم خفيف فى العينين يجعله يقطب حاجبيه « ليت الشمس تحتجب بضع لحظات ريثما يزول هذا الالم » .

ـ لقد قالوا أمس فى الاذاعة أن السماء ستمطر .. ما أغباهم ! لقد دخلوا فى علم الله !

لم يشعر الفتى بالرغبة فى الرد على الحانوتي . فتح عينيه ، خطوط من الالوان يغلب عليها الازرق ارتسمت أمامه . الجدار المقابل تنطبع عليه بقع حمراء لا تلبث أن تتحول الى زرقاء فبنفسجية .

ـ فى السابق ، كانوا يختمون النشرة الجوية بقولهم : والله أعلم . أما اليوم ..

الافضل له أن يغمض عينيه من جديد، انه لا يحس بأية رغبة فىالتحدث الى الحانوتي ، ولا فى رؤية المارة والرد على تحيات البعض منهم . بل

ـ نعم .. لقد كانت النشرة الجوية مؤمنة فى السابق ..

انه لا يحس بأي ميل لمطالعة المجلة التي بين يديه ، رغم آنه جاء بها ليطالعها « ومع ذلك فأنا لن أنعم براحة البال التي أنشدها » .

« ما أغبى هذا الحانوتي ! ألا يعرف أن وسائل الارصاد قد تطورت وصار فى وسع الانسان أن يتحدث عن الجو فى تقلباته القادمة والارياح قبل هبوبها . هذا الحانوتي جزء من الاسئلة التي تتوالد وتتكاثر فى ذهني وما من جواب عنها . انه علامة استفهام لا أكثر ولا أقل » .

شعر بأنه من الافضل له أن يخلد الى الصمت وألا يبادله حديثا بحديث والا تشعبت الامور ونغصت عليه صفو هذه اللحظة الدافئة .

ـ أسمعت عن ذلك الشهاب الذي تحدثوا عنه فى الاذاعة ؟

« لعنة الله على الحانوتي ! لقد تحول الآن الى فلكي . انه لا يحسن سوى السماع والالتقاط وتضخيم ما يراه . ما دخله فى علم الفلك ؟ أليس يجدر به أن يعود الى البطاطا والفلفل وو ... ولكن من غير اللائق بي أن أسكت عنه » .

ـ لقد سمعت عنه يا عمي الحاج .. انه شهاب ضخم ..

ـ نعم . انه شهاب مذهب ، دليل على قدرة الخالق ..

« حبذا لو سكت الحانوتي وتركني استمتع بدفء الشمس » .

كيف يتخلص من ثرثرته ؟ هل يغرق رأسه فى المجلة أم ينتقل الى مكان آخر ؟ انه لا يتحدث الا عن الامور التي لا يفقهها أو عن القضايا التي تتكرر كل يوم . « انه نسخة طبق الاصل لآلاف مثله فى هذا الوطن ،

لا يحسن طرح السؤال ولا تقديم الجواب الشافي . صحيح أنه لم يذهب الى المدرسة ، وأنه يشارف على الشيخوخة ولكن كل ذلك لا يشفع له ».

ــ انه شهاب مذهب .. انه علامة من علامات اقتراب الآخرة ..

ــ من يدري يا عمي الحاج ..

« الحديث عن الآخرة الآن . عن الحساب والعقاب وكيف يقوم الموتى من قبورهم ليصفوا حساباتهم مع الخالق . ما لهذا الملعون لا يسكت ! كلماته أسرع من ذهنه . انه لا يقوى على ضبط زمام عقله . ولكن لم الحيرة فى أمر هذا الحانوتي ؟ انه كمعظم الناس فى هذا البلد يقول أشياء لا يستطيع أن يقيسها الا بمقاييس التقاليد والعادة » .

أحس الفتى فى هذه اللحظة بأنه من جيل آخر فعلا . انه لا يفكر أبدا مثل الحانوتي . ربما لأنه ذهب الى المدرسة وتعلم كيف يطرح الاسئلة حيث يجب طرحها . بل انه لا يشعر برابطة بينه وبين الحانوتي . فتح المجلة قبل قليل وقرأ نتفا عن تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ، وطرح تساؤلات بشأنها ، فهل سبق لهذا الحانوتي وطرح تساؤلات مماثلة ؟ كلا ! « انه يقتات بما حصل عليه فى المحيط الصغير الذي يعيش فيه . لو استطاع أحدهم أن يقرأ ما يجول فى ذهني الان بالذات لقال لي : أنت مثقف بورجوازي ، لاتهتم بالمواطن البسيط حواليك .. ، قد يكون الحكم صحيحا ، ولكنني لا أشعر حقا بصلة بين عالمي وعالم الحانوتي . انني أطرح تساؤلات . ليس غير . أحس ضرورة طرح مثل هذه التساؤلات فالعالم لن يتوقف عند حدود ما وصل اليه الحانوتي ، بل يجب على الحانوتي ان يرتفع الى مستوى العالم ان استطاع . »

ــ حقا .. لقد استطاع الامريكيون ان يصعدوا الى القمر ..

« الملعون ! لقد قرأ ما يجول فى ذهني ، وعلم انني أهون من شأنه . ما دخل القمر الآن ؟ هل يريد الحانوتي أن يبرهن بأنه أوسع اطلاعا مني ؟ ربما . لقد قال لي منذ لحظات انك لا تزال صغير السن وسوف تـرى أشياء عجيبة خلال حياتك . انها التجربة اذن . يعني أن الحانوتي من الجيل الذي يواجه الحياة بالتجربة المحدودة الضيقة . من الجيل الذي عاش فى دائرة محدودة من المفاهيم . »

شعر بوخز فى عينيه ، ففتحهما ، وما لبثت دموع الالم ان طفرت منهما .

« هكذا اذن ! شمس الشتاء دافئة ، ولكنها ضارة بالعينين . انها تجربة سوف اتعلمها ، وانخرط بعدها فى جيل التجربة . ليس لي بد من ذلك . ولكن أواه .. انني لا أشعر برابطة وثيقة بيني وبين الحانوتي ، ولا بمعظم الناس الآخرين . ليس علي سوى أن أعتكف فى ذهني أو أنظم الى الآخرين . »

ازداد استرخاء . أدرك تلك اللحظة بأنه ، بدوره ، لا يحسن طـرح التساؤلات . ظل زمنا يتساءل عن مصيره داخل مجتمعه ، ومصير مجتمعه الكبير ، ولكنه ما خرج آخر الامر الا بتساؤلات وراء تساؤلات . « ما العمل اذن ؟ أليس يجدر بي أن أعيد النظر فى القضية وأتجه طريقـا آخر ؟ »

حركات خفيفة تند عنه . الشمس تؤلم عينيه وتشيع الدفء فى جوانب رقبته « أحس بذهني يشرد دون أن يغريه مكان ما بالتوقف . انها عادة قبيحة ! لا أكاد أستعرض موضوعا ما حتى أتركه على حالته وانتقل الى موضوع سواه . جربت هذه العملية مرات عديدة ، اعتقدت أول الامر أن مطالعاتي هي التي تدفعني الى الربط بين الموضوعات المختلفة ، ولكنني لم أعد أرى فائدة ترتجى من هذه العملية . انها تدفعني الى أن أربط ما بين

الماضي والحاضر في محيط ذهني ليس غير ، وهذا ما لا أحبه . في البداية كنت استحب تلك الجولات في التاريخ والحضارات ، ولكنني لا أرى ضرورة لعقد مثل هذه المقارنات . فكيف آربط ما بين الماضي وهـذا الحانوتي ؟ أين هي الصلة ؟ انني أحس بها انقطعت منذ زمان طويل . الصلة الوحيدة الموجودة بين عالم الماضي وعالم الحانوتي هي أن صاحبي يقوم للصلاة خمس مرات في اليوم ، ويلعن الكفار ، أما باقي تصرفاته فهي من نسج الظروف المحيطة به ، وهي ظروف أبعد ما تكون عما كانت عليه في الماضي » .

وضع عود كبريت على طرفي شفتيه .

« أين الوحدة في هذا المجتمع ؟ هذا هو السؤال الذي ينهش ذهني ، ولا أجد له جوابا شافيا . قد أكون مخطئا في طرح مثل هذا السؤال، وقد يكون الجواب حاضرا دون أن أرى آثرا له حـوالي . ولكننـي وليـد المطالعات المتعددة او وليد الذهنية التي تعلمت التفكير في اطارها ، ولكن ليس لي مناص من طرحه . هذه هي الحقيقة المرة . وهذه هي نتيجة التعلم والدراسة . فكيف أعيش في عالم دون أن تتاح لي فرصة لطرح الاسئلة حول مسيرة ذلك العالم في الحياة ؟ آه ما احلاك يا شمس الشتاء ومـا أشد ايلامك ! حتى أنت القيت بي في هذه المتاهات ! »

فتح عينيه ، فرأى أطفالا في آخر الزقاق يحاولون ان يسحبوا بالقوة كبشا جموحا احتشدوا حواليه . أحدهم يأخذ ذيله ويحركه يمينا ويسارا، وآخر يسحبه من قرنيه ، ولكن الكبش لا يلبث ان يطوح بشملهم .

ابتسم دون أن يحيد بنظراته عن جماعة الاطفال . « هذا كل ما بقي من الماضي ؟ حتى أضحية العيد فقدت معناها . لم تعد لها نفس القداسة ، ولم تعد تجمع حولها سوى اطفال لا يعرفون من العيد سوى انه كبش

سمين ذو قرون قوية . ليس هناك في الزقاق ما يدل على انه لم تبق الا ايام قلائل للاحتفال بعيد الاضحى . الحانوتي نفسه اشترى كبشا ثم باعه ولعله لم يلق معارضة في بيعه وسط عائلته . أين اذن هده العلاقـه بين الماضي والحاضر ؟ »

نظر الى الحانوتي ، فراه يفكر « فيم عساه يفكر ؟ أفي الكبش الذي اشتراه للعيد ثم باعه ؟ من يدري ! قد يفكر في هده اللحظة بالدات في أمر الكفار او في الحرب الدائرة حول بيت المقدس . عجيـب أمر هـذا الحانوتي ، انه لا يفكر حتى في السلع التي تنقصه داخل دكانه . لو انه فكر فيها بجد لكان الآن يصول ويجول بين زبنائه . »

رائحة البخور بدأت تشيع في الزقاق وتزخم أنفه . وجه بصره نحـو جدار البيت المقابل فاذا بخيوط من دخان ترتفع نحو السماء . وادرك أن الشوافة صاحبة البيت جالسة الى زبونة لها « ولكن كيف تكـون جالسة الى زبونة وأنا لم أر أحدا يطرق الباب ؟ »

لقد اعتاد رؤية الزبونات وهن يطرقن الباب لمعرفة الحظ ، ولكنه لم يبصر واحدة منهن هذا الصباح . لعل واحدة منهن انسربت الى الداخل حينما كان غافيا . ولولا غفوته تلك لأنالها شيئا من سخرياته كالعادة .

لعل الشوافة الآن في تعاويذها . لم تنتبه لوجوده أمام الحانوت المقابل لبيتها ، والا لكانت أطلت من النافذة ترسل عليه نظراتها الضيقة الماكرة . « هذه هي اذن العلاقة بين الماضي والحاضر ! انها بقايا فقط . لم تستطع دهور من العلم والجهل معا ان تقضي على العرافة ولا على الكهانة في اذهان الناس . لم تستطع حتى الثورة المسلحة في هذا البلد ان تضع حدا للدروشة ! ذلكم هو الحس المشترك في هذا المجتمع . انه يتكتل حول الخرافة ، ويتكلم في أمور لا فائدة ترتجى منها » .

عاد وابتسم فى قرارة نفسه وهو ينظر الى الحانوتي :

ــ فيم تفكر يا عمي الحاج ؟ ..

ركز الحانوتي بصره على نقطة ما فى الارض قبل ان يرد عليه :

ــ أفكر فى بيع هذه الحانوت والذهاب الى المدينة المنورة للعيش بها

« مسكين لقد بدأ يهذي »

جعل يتأمل خيوط البخور وهي ترتفع وراء الجدار المقابل ثم تتلاشى . « وهل من مقارنة بينها وبين خيوط الدخان التي يرسلها الهنود الحمر الى عنان السماء فى افلام الغرب الامريكي ؟ حاشا لله ! خيوط البخور تحاول ان تتصل بعالم السحر والجن ، وترى الى التاريخ وهو يسير بحركة عكسية على حين ان خيوط الدخان التي يرسلها الهنود الاحمر تشير الى اقتراب خطر أو الى حدوث معركة وهي تصنع التاريخ بذلك . »

عاد الفتى ينظر الى الحانوتي :

ــ وهل تعتقد يا عمي الحاج ان ما تحصل عليه من بيع حانوتك هذه سيكفيك للعيش فى مأمن عن الحاجة بالمدينة المنورة ؟ ..

أدار الحانوتي الصندوق الذي يجلس عليه . وواجه الفتى ، جعلت عيناه تطرفان كعادته كلما فكر فى مسألة خطيرة . بدا وكأن به صداعا عنيفا يحول بينه وبين التفكير الجاد . ثم انه أغمض عينيه وتنفس طويلا :

ــ اعتقد انني سأقوى على العيش هنالك .. بل اني استطيع ان افتح دكانا بالمدينة المنورة ..

ظل الفتى ينظر بغرابة الى الحانوتي . « أيمكن أن يبلغ به الحد الى أن يهجر بلده دون أن يكون هناك دافع الى الهجرة ؟ » .

ـ لقد سئمت العيش هنا ..

أعترت الفتى هزة ، لكنه تمالك نفسه . « حتى الكبار نال منهم السأم فى هذا البلد . حتى الذين لا يقرأون ولا يكتبون ولا يفكرون الا فى اطار محدود من التقاليد سئموا العيش فى هذا البلد . »

ـ لم يعد هناك دين فى هذا البلد ..

مط الفتى شفتيه وتمعن فى ما قاله الحانوتي . « قد يكون حكمه صحيحا . ولكن هل من طريقة للخروج من هذا المأزق الذي توجد عليه الحياة فى هذا البلد ؟ » .

قطع الحانوتي عليه تفكيره :

ـ قلت لك لم يعد هناك دين فى هذا البلد .. الاشتراكية حلت محل الدين .

فرك الفتى يديه . « لقد انتقل الحديث الآن الى الاشتراكية ، ما دخل الحانوتي فى هذه المسألة ؟ ألا يكفيه انه لا يفقه فى الدين شيئا حتى يدلي بدلوه فى موضوع لا يدري عنه أدنى شيء ؟ أيمكن أن تكون الاشتراكية فى دائرة الحس المشترك لدى هذا الشعب ؟ ربما . لست أدري .

انني أحس بكل شيء مثل علامة استفهام لا أقوى على زحزحتها . »

ـ لقد كافح هذا الشعب باسم الدين ولم يكافح باسم الاشتراكية .. كان الواحد يصعد الى الجبال وهو يقول لا اله الا الله ..

حملق الفتى فى الحانوتي . عجب كيف أنطلى عليه أمره . لم يكن يعلم انه على هذه الدرجة من التعصب . أحس من نفسه ميلا الى تقديم بعض الشروح للحانوتي لكنه خشي أن يعكر صفو العلاقة بينهما . وأدرك فى تلك اللحظة أن الشجاعة تنقصه . « الاشتراكية هي المنطقة التي يمكن أن تجمع بيني وبين هذا الحانوتي ولكن ها هي ذي المنطقة تتقلص . »

ـ ولكن الاشتراكية ليست دينا يا عمي الحاج .. انها طريقة فى العيش فقط .

تلقى من الحانوتي نظرة شزراء ، فأطرق برأسه . « كيف السبيل الى اقناع مثل هذا العجوز على العدول عن رأيه ؟ الحانوتي منكمش فى منطقته ولن يبرحها أبد الدهر . عدد كبير من أمثاله فى هذا البلد لا يغادرون مناطقهم . لقد تعودوا عليها على مر الزمن وصارت مقدسة ، الويل لمن حاول النيل منها أو حاول اخراجهم منها . »

عاد الفتى يفرك يديه . « اذا كان الكبار قد سئموا العيش فى هذا البلد ولم يعد يجدى شيء لاجتلابهم ، فكيف العمل لانقاذ الاجيال الطالعة . »

ـ بالعلم فقط ..

ـ ماذا تقول ؟

ـ عفوا .. لقد كنت أخاطب نفسي ..

أغمض الفتى عينيه وهو يواجه الشمس « الكبار فىهذا البلد لا يمثلون فى واقع الامر سوى الاهتزازات الاخيرة لدى المجتمع القديم . قد يكون

هذا الرأي صائبا . فليس هناك تفسير محتمل لمواقفهم من التغيرات الجديدة . انهم يكونون منطقة منغلقة على ذاتها ليس الا . »

ــ اسمع .. انك لا تزال صغيرا .. وسوف ترى بأن الدنيا كلها عبارة عن مسلمين من جهة وكفار من جهة ثانية .

ابتسم الفتى . « انهم يقولون : الدنيا عبارة عن اشتراكيين من جهة ورأسماليين من جهة ثانية .. أو هي عبارة عن فقراء من جهة وأثرياء من جهة ثانية .. »

ــ أكاد أجزم بأن الاستعمار لم يدمرنا مثلما دمرنا الاستقلال .. الاخلاق انهارت فى ظرف سنوات قليلة .. لقد رأيت ألوانا من البشر تعاقبوا على هذا البلد قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ولكن مع ذلك ظلت للعائلة الجزائرية حرمتها ..

مسح الفتى عينيه بكم قميصه الايمن ، كان عرق خفيف يلتمع على جبهته ، وود فى تلك اللحظة أن يقوم من مكانه ويترك الحانوتي وحده يجتر أفكاره . « الغبي ! انه لا يدري بأن المجتمعات تتغير . ولكنني أعذره فهو لا يعرف حتى كتابة اسمه . تجربة الحياة وحدها لا تنفع اذا ظل الانسان على أميته . »

ــ أنا أوافقك يا عمي الحاج بأن الاخلاق قد انهارت .. ولكن هناك شيء يقال له التغير . يجب أن يحس به كل انسان .

قاطعه الحانوتي بضحكة ساخرة :

ــ التغير ! آه لو قام أبوك من قبره ووجدك ترسل مثل هذا الكلام !

صمت الفتى . أحس بأن الحانوتي يصغر من شأنه . « انه غبي حقا ، ولكنني أعذره . يحسب انه لا يوجد شخص متدين فى هذا البلد سواه . احس على كل حال بأنني أشد تدينا منه ، وهذا يرضي ضميري . اني أحاول أن أفهم هذا المجتمع فقط ، واعلم تمام العلم منذ الان بأن لا جدوى من خوض أحاديث مماثلة مع جيل الحانوتي ، لقد كانت لهم أفكارهم ، صنعوها بأنفسهم فى ظروف عصيبة ، فمن العبث اذن اقناعهم بضرورة النظر فيها من جديد »

راحت عينا الحانوتي تمسحان الزقاق بقلق . كانت شفتاه مزمومتين ثم انبسطت أسارير وجهه كأنه وجد ما كان يبحث عنه :

ــ أتريد أن تقول لي بأنني لا أفهم الحياة لأنني لا أقرأ ولا أكتب . هذا خطأ يا بني .. ليست بي حاجة الى مثل قراءتك لكي أفهم الحياة . الرسول عليه السلام كان أميا ..

ابتسم الفتى فى قرارة نفسه . علامات السخرية ارتسمت على وجهه لكنه لم يرد أن يقول شيئا مخافة اغاظته « انك عجوز غبي ولكنني أعذرك .. أجل لقد كان الرسول أميا ولكنه كان أميا مثقفا . ولكن كيف السبيل الى افهامك معنى كلمة الثقافة ؟ »

ــ لست فى حاجة الى القراءة لكي أفهم بأن الدنيا عبارة عن مسلمين من جهة وكفار من جهة ثانية .. ولست فى حاجة أيضا الى أن أفهم بأن الاخلاق قد انهارت فى هذا البلد .. لقد رأيتها بعيني هاتين ..

سحائب البخور لا تزال تنعقد وراء الجدار المقابل . الشوافة قد تكون وجدت السر وطمأنت زبونتها على مستقبل بنتها العانس أو على مصير ابنها المغترب فى أوربا . ظل الفتى على قعدته تلك ، أحس بالعرق يجف على

جبهته ففتح عينيه ، ووقعت على كتل من السحاب تغطي وجه الشمس . ثم انه شعر بالبرودة تشيع فى صدره . اعتراه نوع من الندم فى تلك اللحظة . « لو أنني درست العلوم الطبيعية لوقيت نفسي شر البحث والتمعن فى أمر هذا المجتمع ، وفى أي المفاهيم التي تصلح لمسيرته فى الحياة . ولكنت هذه اللحظة أبحث فى تأثير الحرارة على عالم المادة بدلا من التفكير فى أمر هذا العجوز الى جانبي وكيفية اخراجه من منطقته الى العالم الارحب . »

الاطفال يرسلون صرخاتهم فى آخر الزقاق ، يتفرجون على معركة بين كبشين يتناطحان . الحانوتي يبتسم للمشهد :

ــ انهم شياطين ..

عبرت الزقاق سيارة فخمة ، فأثارت الغبار . وحانت من الفتى التفاتة نحوها ، فاذا به يرى كبشا منطرحا على مقعدها الخلفي :

ــ أنظر يا عمي الحاج .. حتى الاغنام صارت تركب السيارات الفخمة. انك تقول بأن الدين قد انهار فى هذا البلد ومع ذلك فالناس لا يزالون يتمسكون بشعائره ..

مسح الحانوتي صلعته وقال :

ــ ان ناس هذا البلد لا يؤمنون الا بما يملأ بطونهم ..

عاد الفتى يخاطب نفسه : « قد يكون الحانوتي محقا .. فالدين يكون قد صار الى شكليات .. » انتابه نوع من الرهبة . « كيف يصير هذا المجتمع ان هو فقد عاداته الدينية وراح يبحث عن أخلاق أخرى يبنى عليها حياته من جديد . آه ، انه تخاذل مني ليس الا . انني أعلم انني

متناقض فى تفكيري ولكنني لا أحس أبدا بأن تناقضي هذا قد يدفعني ذات يوم الى اليأس . المهم هو أن أفكر وألا أكف عن التفكير حتى أحاول الخروج من منطقتي أنا الآخر وأدخل منطقة تلائم الجميع فى هذا البلد . الكتب حقا لا تنفع ان هي طوحت بي بعيدا عن المحيط الاجتماعي الذي أحيا فيه . ثم انه من العيب علي أن أحتقر الناس حولي . انني أحس حقا بأن هناك مناطق حياتية متعددة فى هذا البلد وكل ما آمله هو أن يخرج الناس الى منطقة واسعة تشملهم جميعا . قد أكون مخطئا فى تفكيري ولكن عيني لا تخطئان أن ما يجول فى ذهني الآن ليس الا نتيجة لما أراه. وقد يكون ما رأيته وقفا على المدينة فقط . المدينة غير الريف . المدينة ليست فى واقع الامر الا ولدا لقيطا . انها خليط من كل شيء ، وملاحظاتي لا يمكن الا أن تكون مقصورة على المدينة . »

نظر الى الحانوتي وقال له :

ـ أنا متيقن يا عمي الحاج لو انك عدت للعيش فى الريف لغيرت حكمك . المدينة التي نحيا فيها خليط من كل شيء ، ومن الطبيعي أن تكون لها أنواع عديدة من الاخلاق . بل انه من الضروري أن تكون كذلك ..

« لكن ها أنذا أناقض نفسي .. »

نظر اليه الحانوتي نظرة الواثق من آرائه وقال :

ـ انك لا تزال صغيرا يا بني .. سوف يتغير رأيك مع الايام ..

ـ اذن أنت مصر على الذهاب للعيش فى المدينة المنورة ؟

أجابه الحانوتي على الفور :

ــ انني أفكر فى الموضوع بجدية .. سوف أبيع الحانوت ..

قاطعه الفتى :

ــ ولكنهم لن يسمحوا لك بنقل أموالك الى هناك ..

همهم الحانوتي ، ثم ابتسم :

ــ اعلم ذلك جيدا .. انني لن أنقل شيئا من هنا .. ولا سنتيما ، سوف أحول عنواني فقط الى المدينة المنورة .. الالمان يقومون بالباقي ..

قطب الفتى حاجبيه ، وسأل الحانوتي :

ــ ولكن .. ما دخل الالمان فى القضية ؟

لم يتلق اجابة من الحانوتي ، كان يعلم ان الحانوتي شارك فى الحرب العالمية الثانية الى جانب الالمان . ولكنه لم يستطع أن يرى علاقة للالمان بقضية الانتقال الى المدينة المنورة ..

ــ انني أتقاضى منحة شهرية من الالمان . لقد أسرت خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم يقبل الالمان باطلاق سراحي الا مقابل التطوع فى جيشهم ..

هز الفتى رأسه ، لكأنما الحانوتي أوقع به « لقد قرأت المئات من الكتب ، ولكن هوذا هذا الحانوتي المهذار المتطفل يلعب علي مقلبا دون أن أتفطن له . »

ــ قلت لك ان الدنيا عبارة عن مسلمين من جهة وكفار من جهة ثانية .. لقد حاربت الكفار فى جيش الكفار أنفسهم .. كنا نستعد لتحرير هذا البلد فى الاربعينات .. كنا فى طريقنا للانضمام الى جيش الشريف الحسيني ..

حمـرة الخجل شاعت فى وجه الفتى . « من يكون هذا الشريف الحسيني ؟ » أغمض الحانوتي عينيه فى مواجهة الشمس . كانت علامات الزهو مرتسمة على وجهه كمن تغلب على خصم لدود . « الغبي .. انه مزهو بنفسه الآن . الجهل تغلب على العلم .. الجهل دحر العلم فى موقعة مشكوك فيها .. ولكنني حقا غبي .. كان علي أن أستعمـل أسلحتـه وأخاطبه بالتي هي أحسن كما يقول هو نفسه » .

بدا على الحانوتي انه يهيم فى عوالم بعيدة . الشعيرات القليلة البيضاء فى فوديه كانت تلتمع بين الفينة والاخرى عندما تلامسها أشعة الشمس . صدره يعلو ويتطامن برتابة عجيبة أدهشت الفتى الذي راح ينظر اليه بنوع من الغيرة . « حقا .. هذا العجوز لن يغادر منطقته .. سيزداد بعد اليوم استمساكا بها .. سوف يعتقد دون أدنى شك بأنه دحر الافكار التي تجول فى عقل شاب مثقف . »

ـ آه .. انني أتخيل أمامي حمائم المدينة المنورة وهي ترتفع فى الجو بعد أن يؤذن للصلاة .. آه ، ما أعجب تلك الحمائم ، انها تريح نفسي .

أحس للفتى بأن الحانوتي يريد اغاظته ، فقد انطلقت كلماته متباطئة متمايلة بنوع من الغنج :

ـ سأذهب للعيش فى بلد الاسلام ..

« هذه هي نتيجة من يحاول أن ينطح صخرة . لقد تمكن هذا العجوز من اغاظتي » .

ـ وتذهب للصلاة فى بيت المقدس . أليس كذلك يا عمي الحاج ؟

انتفض الحانوتي واستوى فى جلسته :

ـ ولم لا ؟ بعد أن يتم تحريره من اليهود ..

« آه .. لقد لمست الآن الوتر الحساس لدى هذا العجوز » .

استطرد الحانوتي :

ـ بيت المقدس سيتحرر على أيدي المسلمين ..

ـ لم يعد هناك مسلمون يا عمي الحاج ..

قال له الحانوتي راجيا :

ـ لا تكفر يا بني ..

ـ المسلمون تخاذلوا يا عمي الحاج ..

مسح الحانوتي العرق عن يديه بطرف مئزره :

ـ بيت المقدس سيعود لنا .. محال أن يبقى فى ايدي اليهود ..

ـ أنا أوافق على أن بيت المقدس سيعود لنا ، ولكن بعد أن تتخلى عن نفاقنا .. اننا نفطر بالنفاق وتتعشى بالنفاق فى هذه الرقعة الجغرافية الواسعة .. اننا لا نكون مسلمين الا أمام الخطر .. كلما اقترب الواحد منا من حافة القبر هرع الى الله ..

مط الحانوتي شفتيه وقال :

ـ ظننتك تفهم أمور السياسة ..

ـ ولكن ما دخل السياسة فى حديثنا يا عمي الحاج .. اننا نتحدث عن الاسلام والمسلمين وتحريره من اليهود ..

ساد الصمت بينهما : بدا مغتاظا . جعل الفتى يقلب صفحات المجلة برتابة ويحدث نوعا من الخشخشة كلما قلب ورقة ، لكأنما كان يود الانتقام من الحانوتي . نظراته كانت تنتقل من صفحات المجلة الى وجه الحانوتي الغافي . ظل لفترة من الوقت على حالته تلك ، ثم أحس بنوع من القلق ينتابه أمام سكوت الحانوتي . « أتراني سببت ازعاجا للحانوتي . من الاكيد انني تغلبت عليه صحيح بحجج واهية . من أدراني بأن المسلمين لن يأخذوا ثأرهم من اليهود ويسترجعوا بيت المقدس والاراضي الاخرى . حقا ، انني متناقض فى تفكيري ومع ذلك فأنا أقل تناقضا من الحانوتي . الحانوتي يؤمن بأن القدس ستعود يوما ، ولكن ايمانه لا يجعله يربط قضية عودة القدس بالعمل الجاد . ايمانه ميتافيزيقي لا يقرنه بالعمل مع أن الايمان يجب ألا ينفصل عن العمل والا بات نوعا من التهويم فى عالم المجردات التي لا صلة لها بحياتنا . »

توقف الفتى عن تقليب صفحات المجلة ، وحدق طويلا فى وجه الحانوتي . « الحانوتي كفيل بأن يقنع أبناء جيله وأن يحطم حججهم . أما جيلنا نحن فانه صعب ، انسلخ عن نفسه بحكم الواقع الذي يعيشه وبحكم الثقافة التي تلقاها . ان جيلنا يحكم على الجيل الذي سبقه بمعايير أجنبية ولكن هذه المعايير تظل مع ذلك صحيحة فى معظمها . الحانوتي وأمثاله يشكلون منطقة خطيرة ومنيعة فى ذات الوقت لا يمكن أن تنال منها ثقافتنا . على كل حال هناك أشياء تشفع لهم . فلولا ايمانهم بصواب ما يعتقدونه لما حدثت حرب تحريرية فى هذا البلد . عندما نشبت الثورة ، لم يفلسفوها، بل تناولوها وامتزجوا معها ، لانها كانت تعبيرا عن صحة ايمانهم ، أما نحن الذين قرأنا قليلا من الكتب فاننا نصنع العوالم المجردة فى أدمغتنا دون أن يكون لها أي ارتباط بعالم الواقع . اننا نحاول خلق

الواقع ابتداء من أدمغتنا ، مع انه لم يحدث فى التاريخ أن صنع الانسان واقعه وفقا لما ارتآه فى ذهنه . الانسان يفلسف حياته المقبلة والصورة التي يجب أن تكون عليها هذه الحياة ، لكنه يتفطن آخر الامر الى انها ليست على الشكل الذي أراده لها بالتمام . هناك تغييرات وادخالات جديدة يحسب لها حسابا . »

وضع الفتى يده على كتف الحانوتي ، وهزه برفق قائلا :

ـ عمي الحاج .. هل أنت غاضب ؟

ابتسم الحانوتي بنوع من التعالي وقال :

ـ ولم أغضب يا بني ؟ .. لقد تحدثنا فى موضوع ووددت لو أنك تفهمني ..

« هذا الحانوتي معاند كبير . انه لن يتخلى عن تعاليه حتى وان اتضح له أن آراءه خاطئة . »

أقبلت فى تلك اللحظة عجوز ، وانسربت داخل الدكان ، فقام الحانوتي متكاسلا وقد أثرت أشعة الشمس فى عينيه . تنهد الفتى وهو يرى الحانوتي يبتعد عنه ويدخل فى كلام يكاد يكون همسا مع العجوز . ولم يلبث أن بلغت مسمعيه انتقادات العجوز ، أدرك بعدها انها لم تجد لدى الحانوتي ما تريده من سلعة . ثم انها خرجت متذمرة تحرك يدها اليمنى بعنف .

ـ انها تبحث عن أشياء لا تأتي الى هذا الحي أبدا .. الاشياء الضرورية لا تكاد تصلني ، فكيف بالحاجات الاخرى التي لا يحتاج اليها الانسان الا مرة واحدة أو مرتين فى السنة ؟

عاد الحانوتي الى مكانه على الصندوق وقال متذمرا :

ــ لقد أفرغوا حانوتي هذا .. الدولة أخذت كل شيء .. انها تسيطر على التجارة كلها !.

« لو أنني دخلت معه فى حوار حول التجارة لتشعب الموضوع الى مواضيع أخرى أكره التحدث عنها . »

نظرات الفتى راحت تجوس الزقاق تبحث عن شيء تستقر عليه . وما لبث أن عاد يحدق فى الحانوتي ويقول له مازحا :

ــ ان المبلغ الذي تحصل عليه من بيع حانوتك لن يكفيك حتى لشراء بطاقة سفر .. انها فارغة ..

أرسل الفتى ضحكة طويلة :

ــ أعلم أنها فارغة .. انني سأبيع الجدران ولا أبيع ما بداخلها ..

ــ أنصحك يا عمي الحاج بأن تدخل الى الشوافة عساها تقرأ لك شيئا عن مستقبلك فى المدينة المنورة ..

ــ أعوذ بالله ..

أطبق الصمت عليهما . فى السماء تكدست غيوم رمادية مفاجئة . وفى الزقاق انفرط عقد الاطفال فهيمن سكون غريب يشابه الصمت الذي يرين على ساحة المعركة بعد انتهائها . كانت عينا الفتى مفتوحتين ، تحدقان فى جدار بيت الشوافة ، لكأنما كان يود اختراق الجدار ، أما الحانوتي ، فكان غافيا لم يؤثر فيه احتجاب الشمس .

حدس الفتى بأن شيئا ما يحدث فى آخر الزقاق ، فحرك رأسه قليلا ولم يخطيء حدسه . كان هناك شيخ يتقدم بحذر ، كأنه يخشى أن يثير الشكوك حواليه . ابتسم الفتى ، وعاد يسمر نظراته فى الجدار المقبل ،

فقد تعرف على الشيخ وأدرك انه يريد مداورته حتى يتمكن من الدخول الى بيت الشوافة دون أن تنهال عليه انتقاداته . راح الشيخ يمشي الآن على أطراف قدميه بعد أن شارف باب الشوافة ، عيناه كانتا مسمرتين في الفتى والحانوتي ، ولكن الفتى لم يتمالك نفسه ، فانفجر بضحكة طويلة جعلت الشيخ يتوقف في مكانه كأنه لص ضبط في مكان الجريمة . فتح الحانوتي عينيه على صدى الضحكة ، ونظر الى الفتى متسائلا ، ثم ان عينيه وقعتا على الشيخ الواقف بالقرب من باب الشوافة :

ــ أهذا أنت يا عمي ابراهيم ؟

التمعت عينا العم ابراهيم غيظا . جعل يمط شدقيه كمن يود أن يتلفظ بشيء يستعصي عليه . أراد أن يزعق في وجه الفتى ، فكان زعيقه نوعا من الصراخ المكبوت . كان الفتى يتلوى من الضحك ، وكان الحانوتي يبتسم هو الآخر .

قال الفتى بصوت متقطع :

ــ اياك أن تسمعك الشوافة ..

كوم العم ابراهيم قبضته ، وأرسل تنهيدة طويلة :

ــ انك شيطان رجيم .. أنت والله شيطان رجيم ..

طفرت الدموع في عيني الفتى من الضحك :

ــ أتسخر منا يا عمي ابراهيم ؟ .. لماذا جئت متخفيا اذن ؟

ــ اسكت يا شيطان ..

ــ كان عليك أن تأتي كسائر الناس ، وتطرق باب الشوافة بتأدب ..

جعل العم ابراهيم يزم شفتيه ، يفتحهما على اتساعهما محاولا أن يقلد صوت الفتى . بدا مثل مهرج داخل سيرك . الفتى والحانوتي كانا يضحكان دون توقف

ـ ادخل .. لعلها تشفيك من آلام الروماتيزم ..

ـ اسكت والا هشمت دماغك ..

ـ وسوف ترد اليك الحصان الذي بعته فى السنة الماضية ..

« هذا هو الجيل القديم اذن .. يؤمن بالخرافات والتعاويذ . كل جيل متناقض مع نفسه .. جيل آبائنا حارب الاستعمار وانتصر عليه ومع ذلك ظلت الخرافات سائدة فيه. لعل سيطرة الخرافة عليه تعود الى كونه جاهلا . عمي ابراهيم هو الآخر لا يريد مغادرة منطقة الخرافات مع انه عاش حياة طويلة فى العاصمة ، احتك بكل أنواع البشر الذين حفلت بهم . انه لن يخرج من منطقته فيما بقي له من الايام على سطح الارض . »

اقترب العم ابراهيم من الفتى . عيناه فقدتا توهجهما وعلت وجهه مسحة من كآبة . أحس بالهزيمة تسحقه . لم يطرق رأسه كعادته عندما يؤلمه شيء ما ، بل وقف جامدا فى مكانه ينظر الى الفتى دون أن يراه . لم يقل الفتى شيئا ، بل جعل هو الآخر ينظر الى العم ابراهيم من خلال عينين لا تزال دموع الضحك تلتمع فيهما . « هذه اليد الضخمة التي كانت فيما مضى تلهب ظهر الجواد بالسوط ، انكمشت اليوم . قبل سنوات كانت تتحرك بعنف لتأتي بالخبز ، تحمل الأكياس والسلع المختلفة ، أما اليوم فهي تأتي لتطرق الباب على الشوافة لتستجدي شيئا لا تستطيع الشوافة أن تأتي به .. عمي ابراهيم كان يعتمد على جسده بدلا من عقله ولم يكن له فى ذلك بد . »

قال الحانوتي للعم ابراهيم :

ـ اجلس معنا .. لا تبق واقفا هكذا ..

نظر العم ابراهيم بعينين متثاقلتين ، ثم رفعهما قليلا وحدق فى الفتى بنظرة جانبية :

ـ لو أن الدنيا لا تزال على حالها ، لكنت امتطيت عربتي ومعي زجاجتان من الخمر أروح بهما عن هذه النفس المريضة ..

بادره الحانوتي بقوله :

ـ استعذ بالله من الشيطان يا عمي ابراهيم .. الفتى يمازحك فقط . انه لا يود الاساءة اليك ..

ـ اعلم ذلك .. وهل تظنني غاضبا ؟

جلس العم ابراهيم بين الفتى والحانوتي فى مواجهة الشمس ، وراح يحك لحيته الرمادية الخفيفة . قال له الحانوتي :

ـ الشوافة ستأخذ ما تبقى لك من فلوسك .. لقد اكثرت التردد عليها فى الايام الاخيرة ..

ـ اعلم ذلك ..

أراد الفتى فى تلك اللحظة أن يخوض فى حديث جدي مع العم ابراهيم عساه يقنعه بعدم التردد على الشوافة :

ـ أتذكر يوم أصيب صهرك بتوتر عصبي ؟

حدق العم ابراهيم فى الفتى بنظرة تساؤل ، وقد خشي أن ينهال عليه بانتقادات أخرى .

ـ لقد أتيت به الى الشوافة فهل شفته ؟ لو اننا لم ننصحك بأخذه الى الطبيب لكان اليوم فى مستشفى المجانين .

همهم العم ابراهيم . لم يرد أن يبدي اقتناعه . كان هناك شيء يثير القلق فى أعماقه . ولم يكن ذلك الشيء الا خوفه من الشوافة ومن ألاعيبها .

ـ انك تخشى الشوافة يا عمي ابراهيم .. أليس كذلك ؟

تطلع العم ابراهيم الى الفتى جانبيا . التمعت عينه اليمنى ببريق أدرك الفتى على الفور بأن العم ابراهيم يريد أن يقول شيئا خطيرا :

ـ نعم .. انني أخشاها .. لقد قالت عندما زرتها فى الاسبوع الماضي انني سأسحر ذلك الفتى المهذار.وأحوله الى اوزة ..

انفجر الفتى بضحكة رعناء وانطرح أرضا . أما الحانوتي فلم يضحك الا بعد أن أعاد عليه العم ابراهيم ما قالته الشوافة . التمعت عينا الفتى بغشاوة من دموع الضحك . وقال للعم ابراهيم :

ـ سأتحول الى اوزة، وستذبحني أنت وتطبخني طبخا شهيا، وتقدمني للشوافة .. أليس كذلك ؟

رفع العم ابراهيم يده فى الهواء وقال باشمئزاز :

ـ دعك من المزاح يا ولدي .. الشوافة خطيرة .. لا تتلفظ بشيء الا اذا كانت قادرة على تحقيقه .

حول الفتى نظرات يائسة نحو الحانوتي ، كان ينتظر منه أن يتحرك قليلا ويحاول اقناع العم ابراهيم بعدم الايمان بالخرافة ، « عمي الحاج يترك الدنيا تسير على هواها . لا يحاول أن يحدث فيها تغييرا . لقد عاش جنبا الى جنب مع الخرافة حتى كادت تصير شيئا عاديا فى عالمه . »

عاد الفتى يقلق العم ابراهيم بقوله :

ــ اذن .. يمكن للشوافة أن تحول الحي الى حظيرة من الاوز .. أليس كذلك يا عمي ابراهيم ؟

ــ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .. دعك من هذه الشيطنة يا ولدي ..

بادر العم ابراهيم الى القيام من مكانة فشده الفتى من كتفه ورجاه أن يعاود الجلوس . طوح العم ابراهيم بيده اليمنى فى الهواء كأنه يحرك سوطه :

ــ دعني والا هشمت دماغك ..

انه وثب من مكانه ، وعاد ادراجه فى الزقاق دون أن يلتفت ناحية دار الشوافة .

فى الجانب العلوى من الزقاق تعالت صرخات الاطفال . كانوا قد داروا حول الحي بحثا عن شيء يلهيهم . أصواتهم كانت مزيجا من الصراخ الحاد والضحك الطويل . تجمعوا وراء كبش سمين يحاولون مساعدة صاحبه على دفعه الى الامام . الكبش كان عنيدا ، كان يغرز قائمتيه الاماميتين فى حصى الزقاق لكأنما كان يمكن بصاحبه. وكان صاحبه يسحبه بقوة من الحبل الذي ربطه الى عنقه ، وعبثا كان يقرب منه

قبضة الحشيش ليستدرجه بها . فقد كان الكبش عنيدا حرونا . عندما اقترب صاحب الكبش من الحانوتي والفتى ثار فى وجه الاطفال :

ــ انكم تخيفونه ..

ضحك الفتى ، أعجبه منظر صاحب الكبش وهو يتصبب عرقا . تحرك الحانوتي من مكانه واقترب من الكبش وقال لصاحبه :

ــ الكبش متعب .. انه فى حاجة الى الراحة والا فانه لن يتقدم خطوة واحــدة .

نظر صاحب الكبش الى الحانوتي بعينيه الضيقتين اللتين كانتا تطرفان بسبب العرق ، وقال :

ــ لديك الحق .. لقد جئت به من مكان بعيد ..

راح الاطفال يتهامسون فيما بينهم . وعاد الحانوتي الى مكانه وقال :

ــ هل كلفك غاليــا ؟

ــ خمسمائة دينار ..

« الاطفال وآباؤنا هم الذين يهتمون بأضاحي العيد ، جيلنا نحن فقد هذا الاهتمام . »

استدار الفتى نحو الحانوتي وقال :

ــ ألا تلاحظ يا عمي الحاج ان العيد بدأ يفقد معناه ؟

بسط الحانوتي يده اليمنى مستعينا بها على أداء فكرة يريد التعبير عنها ، وجعل يهزها بحركة ثقيلة :

ــ لقد بدأت توافقني الآن .. اما قلت بأنه لم يعد هناك دين فى هذا البلــد ؟ ..

همهم الفتى ، عيناه كانتا نصف مغمضتين . قال :

ـ أنا معك ان هناك نوعا من الارتداد عن الدين .. ولكن قد يكون هذا الارتداد كما سبق أن قلت لك وقفا على المدينة ، انني لا أظن ان الريف يعاني نفس ما نعانيه نحن ..

الأطفال تفرقوا . صاحب الكبش استند الى جدار دار الشوافة دون أن يطلق من يده الحبل المشدود الى عنق الكبش ، الحانوتي قام من مكانه ليلبي حاجات جماعة من الزبناء .

« ما أظن ان الحانوتي أخطأ في حكمه . المنطقة الاسلامية بدأت تتقلص في هذا البلد ، ولم تعد هناك منطقة أخرى تخلفها . فيما مضى كنا نحس بكل شيء في أوانه . كانت البيوت تبيض بالكلس عند اقتراب كل عيد ديني .. الذين يبيعون الكلس كانوا لا يفتأون يمرون باحمرتهم في كل موسم ديني ، الاطفال كانوا ينشدون الاناشيد الدينية ، أما اليوم فقد تبدد كل ذلك وانقضى ، تقلصت هذه المنطقة .. انني أود هذه اللحظة ان لو يخرج الحانوتي ويقول لي « انه التغير كما تدعي يا بني ، أليس كذلــك » .

قطيع أغنام يتقدم في الزقاق وراء عجوز عرف فيها الفتى خالتي فاطمة ، عندما اقتربت منه قالت له :

ـ لقد عدت مع صغاري ..

ـ لديك الحق . انهم صغارك ..

« خالتي فاطمة توقفت معرفتها عند الاغنام ، لم يعد يهمها ما يحدث في الدنيا بعد أن وصلت هذه السن » .

صاحب الكبش قام من مكانه وراح يسحب أضحيته برفق . خالتي فاطمة واصلت طريقها مع صغارها . الفتى راح يفرك يديه ، أحس بالوحدة . الزقاق صار هامدا « الحانوتي ليس مخطئا ، الافضل له أن يبيع حانوته ، لست أدري ما يمكن أن يربحه فى هذا الزقاق الخالي » .

خرجت من دار الشوافة امرأة لا تتجاوز الخامسة والاربعين ، تحمل نظارات سميكة ، وراءها أطلت الشوافة بعينين يلتهب فيهما نوع من الشهوة ، ألقت على الفتى نظرة باردة خفق لها قلبه « هذه هي اذن تلك التي يمكن لها أن تحول الناس الى حظيرة من الاوز ؟ » .

وقف الحانوتي عند مدخل دكانه يودع زبائنه ، رائحة الفلفل المطحون انفلتت من الدكان وزخمت أنف الفتى :

ــ لقد حان وقت الفطور يا عمي الحاج ..

فرك الفتى يديه قلقا ، حاجباه كانا مقطبين ، « لقد ظللت زمنا طويلا اطرح الاسئلة ، ولكنني لم أتوصل الى شيء .. انني كالذي يذهب الى الوادي ويظل العطش يحز فى حلقه ، حقا ليست هناك وحدة فى هذا المجتمع ، المنطقة الاسلامية تقلصت . ولم تبرز منطقة أخرى لتخلفها . المجتمع فى هذا البلد عبارة عن مناطق أخلاقية متعددة ، جيل آبائنا لن يغادر منطقته ، المثقفون لهم مناطقهم المختلفة ومع ذلك يتعين على كل واحد أن يخرج من منطقته ، يجب أن نبحث عن طريقة للخروج من هذه المناطق الخطيرة ونخلق منطقة مشتركة » .

ــ الشمس سوف تصيبنا بالصداع يا عمي الحاج .. شمس الشتاء خطيرة ..

قام الفتى من مكانه متثاقلا . الدفء كان لا يزال يشيع فى أطراف جسده العليا . كور المجلة فى يده وأدخل الكرسي الى الدكان . أوصد الحانوتي دكانه ودخل الى داره من باب مجاورة .

راح الفتى يصعد الزقاق ، وأطياف من الالوان تصطرع أمام عينيه ، أحس برعشة برد خفيفة عندما دخل منطقة الظل

السبت 22 جوان 1974

والزرقة دائما ...

الزرقة دائما تنبسط ، تعلو ، تتطامن ، تنداح فى كل الجهات . لا شيء سوى الزرقة .

ندوب الصخرة والتواءاتها تخط دروبا فى الجسد . الدروب تفرز ألما ينتشر على جانبي العمود الفقري .

الزرقة دائما . غير مسموح لها بأن تدخل عالم النسيان . انها تمتزج بالواقع سواء أكان علقما أم عسلا .

السماء ذات زرقة صافية . الزرقة كائن حي يتنفس فى قلب السماء قد يبهت لونها هنيهة ، لكن ذلك لا يغضي من مهابتها .

طيور سوداء ثلاثة تحوم فى الاعالي . يستحيل أن تكون عقبانا . انها لن تصطاد شيئا على هذا الارتفاع . آه ، انها ليست الا سنونو جامحة . من يدري ، لعلها تريد الافلات من جاذبية الارض . الزرقة ، تستهويها بلا شك .

دروب الالم فى الظهر ستتحول غدا الى خطوط زرقاء .

كل شيء يعشق الزرقة . يحسبها غانية تفتح الباب دون أن تميز الجيد من الرديء . ولكن هيهات ! الزرقة غانية وقديسة معا . تمرغ وجهها فى الطين لبعض الوقت وسرعان ما تدخل المعبد لتقضي به الساعات الطوال .

أصوات زرقاء ترتفع . انها أصوات السباحين . الماء يتأوه كلما انغمس فيه أحد . السباحون تجمعوا فى هذا المكان من الصخرة . هناك فتاة تسبح . حشود تستقر فى هذا المكان الضيق من الصخرة ، لا تبالي بالندوب والالتواءات . لعلها تعشق الزرقة . الزرقة ! استقرت الآن على جسد الفتاة من خلال المايوه الازرق .

العينان مشدودتان الى اديم السماء . الصخرة تغرز أخاديدها فى الظهر . الاخاديد تصير ألما ، وغدا يتحول الالم الى خطوط زرقاء .

الى اليمين تتكور الصخرة ثم تعلو شيئا ما . الصخرة تتمرد على القوانين . ترفض الزرقة . انها عدوة الزرقة منذ أن وجد البحر . تستضيف الخضرة والالوان البنفسجية ولا ترى فى الزرقة الا لقيطة مخادعة . يستحيل أن تقبل الصخرة ايواء الزرقة . فقد نذرت نفسها لعدواتها .

هي ذي الزرقة تتقدم مفتوحة اليدين ، متبرجة نوعا ما . منذ عهد بعيد وهي تأتي من الافق النائي لتزور جارتها الصخرة . خطاها متمهلة موزونة. لا تريد أن تثير الشكوك من حولها . ولكن طيبتها تذهب سدى عندما تطرق باب الصخرة . فهي تستحيل بياضا . وتعاود الكرة وكلها أمل ، ولكنها دون أن تدرك بأن الصخرة نذرت منذ الخلق الاول الا تستقبل الزرقة فى دارها .

طائر بحري يحوم فوق الصخرة . انه يعشق الزرقة . ولكن ما باله وحيدا ؟ لعله يندب حظ الزرقة من موقف الصخرة . هو ذا يحاول أن

يحط على الصخرة . يبدو عليه الغضب . جناحاه يضربان الهواء بسرعة . لعله يوجه سبا بذيئا للصخرة . انه يعجب من تعنتها وتمردها على الزرقة . يبدو أنه يئس من اقناعها . هو ذا ينطلق نحو الزرقة الفسيحة .

الى اليسار تتسلق الصخرة ذاتها . فى أعاليها تستقر بقايا سور من الحجارة الزرقاء . الصخرة تكره عشاق الزرقة .

الصخرة تبذل جهدها الآن حتى تغرز التواءاتها فى الظهر . الاخاديد تتحول الى ألم والالم سيتحول غدا الى خطوط زرقاء .

بقايا السوق الازرق فوق الصخرة تمردت يوما ما . ها هي ذي تخضع الآن لرغبة الصخرة . الصخرة لا تقبل بالزرقة أبدا . يستحيل أن تدع للزرقة فرصة الالتصاق بها . حجارة السور الزرقاء بدأت تتآكل وتذعن للصخرة .

أين الضابط الفرنسي الذي كان يسكن فوق الصخرة مباشرة ؟ أين زوجته القميئة المهذار ؟ أين ابنته صاحبة النظارات السميكة والمايوه الأزرق ؟ لعل الضابط صار عجوزا يبكي أيامه الخوالي . لعل ابنته تزوجت وأنجبت أطفالا . أبحروا قبل اثني عشر عاما لأنهم ما عرفوا كيف يحبون الزرقة .

أطراف السور العليا تلتصق بزرقة السماء . قطع من غيوم بيضاء تسافر فى الزرقة . كل شيء يعشق الزرقة الا الصخرة العنيدة .

زرقة زائد زرقة تساوي زرقة . زرقة ناقص زرقة تساوي زرقة . ما الذي حدث فى الازل والابد ؟. شيء عظيم جدا . بول ايلوار لم يخطيء : « الارض زرقاء مثل برتقالة »

الالم أزرق . اللغة زرقاء ولكنها ليس تدرك زرقتها . فما الذي حدث ؟ شيء عظيم جدا . الموت نفسه أزرق : الجسد الميت لا يهترئ قبل أن يستضيف الزرقة . الوليد يسبح فى الزرقة الهلامية قبل أن يصطدم بالالوان الاخرى . يجب تدارك الوضع ، فهناك مؤامرة تحاك ضد الزرقة . أطراف المؤامرة يجهلون كل شيء . يجهلون البداية والنهاية . ولا يعرفون أنهم خرجوا من صلب الزرقة ، لذا كان العقوق محورا لحياتهم

الالم حين يتحول الى زرقة يكون دليلا على الزخم والنضج ونهاية المأساة !

الطيور السوداء الثلاثة لم يعد لها وجود فى الفضاء العالي . لعلها صهرت ذواتها فى الزرقة . ضباب أزرق خفيف يسربل الشاطيء . انه زائر غير ثقيل .

يا زرقة العالم اجمعي أبناءك فأنت فى خطر . انهم لن يقووا على تمزيقك ومع ذلك يجدر بك أن تلمي شتات أبنائك . الدنيا عرفت الخطر الاصفر والابيض والاسود والاحمر . وما كانت فى يوم من الايام لتخشى من خطر أزرق يداهمها ، لانها خرجت من صلب الزرقة . والزرقة هي كل شيء . انها تمسك البداية والنهاية بين أطراف يديها .

بوعلام وجدوه صباح اليوم ميتا تحت الصخرة المجوفة عند الرمل . الكحول أكل شرايينه . لم يقنع بالخمرة فعرج على الكحول . كان عاريا تماما . ثيابه غير بعيدة عنه . الزرقة كانت قد عرشت فى جسده وسط الوشم . شفتاه كانتا زرقاوين دائما . جاء قبل أشهر الى البحر ، وظل يقضي بقية أيامه على الرمل الندي . كان يحب الزرقة هو أيضا . فقد

جاء اليها ليموت بين أحضانها . الزرقة هي كل شيء . بوعلام بلا بيت ولا أهل ، وجد البيت والاهل فى الزرقة .

« ساعدني على شراء زجاجة خمر » : كان كلامه الاخير قبل يومين . تراخت ساعتها أهداب عينيه . وانكمش حول نفسه فوق الرمل . الشرطة لم تقل شيئا عن بوعلام . وهل تعيب عليه حبه للزرقة ؟

الى الوراء ، تتقعر الصخرة ، ولكنها مع ذلك ترفض الزرقة . ثم تتمرد على التقعر وترفع هامتها قليلا . زرقة السماء الباهتة ، تعانق زرقة البحر . انه الدوار ومع ذلك هناك شيء ما يحدث فى البعيد . يبدو أن زرقة البحر تتحادث مع زرقة السماء الباهتة . لعلها تشكو همومها وعناد الصخرة . أو لعلها تتحالف معها حتى تقوى على أن تخضد شوكة الصخرة شيء هام يحدث فى الوراء . انها مسألة تهم الزرقة ومستقبلها . انها قضية أن تكون أو لا تكون .

الصخرة تكره عشاق الزرقة . بل انها تحقد عليهم لأنهم لا يناصرونها على الزرقة .

أخاديد الصخرة تنغرز فى الظهر بكل وحشية . كل شيء يتحول الى زرقة غدا . الظهر سيستضيف الزرقة غدا ، لأنها لا تعرف الحقد

أصوات السباحين الزرقاء تستقر على مايوه الفتاة الازرق . انهم يأكلون الزرقة دون أن يلذ لهم طعم . الفتاة تهرب بزرقتها . ترتدي ثيابا زرقاء ، وتذرع الرمل . السباحون يتبعونها . الزرقة تستهويهم ولكن ما أغباهم ! انهم لن يقووا على حبها حبا صحيحا . انهم يسبحون فى الزرقة . يتنفسون الزرقة . ولكن شتان ما بينهم وبين الزرقة ! الحب الازرق صعب جدا ، لا يغامر فيه الا الازرق ذاته .

الالم يزداد حدة فى الظهر . سيتحول غدا الى خطوط زرقاء . وسوف تندب الصخرة حظها هي الاخرى . وسوف تزداد حقدا على عشاق الزرقة.

الى الامام ، يمتد سور أزرق طويل جدا . على طول السور تتكدس بيوت تنتظر شيئا ما .

لا يمكن أن يوجد فى أعالي البيوت سوى السواد وغيره من الالوان الاخرى . لا يمكن معانقة زرقة السماء ولا زرقة البحر . فالشمس تبهر عيني وليس لي بد من أن اغمضهما .

26 أوت 1974



الجياد تعود من المعركة

١ ـ اللحم المتعفن :

ـ .. حتى زرقة عينيه غير عادية لكأنما وضعوا أمام وجهه حديدا محمى ...

ـ أحكامك غريبة ..

كلامي لن يحدث كبير تأثير . صاحبي وقف الى جانبي يتصفح جريدة ويدخن .

ـ هو ذا يقترب منا ...

خطواته خفيفة ، ولكنها تبدو ثقيلة . يضعها باتزان على الاسفلت . حذاؤه غليظ جاء به بلا شك من بلاد البرد .

ـ «اللحم المتعفن يعود الى أهله دائما .»

ـ انك بذيء اللسان .

ـ انها الحقيقة ..

ـ انه رجل عرف كيف يعيش ..

ازداد اقترابا منا . كتلة باهتة تتحرك : عيناه مصهورتان زائغتان تجاعيد عمودية وأفقية ، لكأنما هي ذاهبة الى عالم من الافلاس .

جاوزنا قليلا ، واستند الى السور المطل على البحر .

ــ ألا تشعر بأنه مهزوم ؟

طوى صاحبي الجريدة وحدق فى وجهي :

ــ لقد عرف كيف يعيش ...

لا يمكن أن أقنعه . لسنا على خط واحد . أجلت بصري فى سور الملعب المقابل . عدد من الرسوم تزينه : « فتيان يتقاذفون الكرة . أرجلهم تبدو متصلبة ، حركات أيديهم ميكانيكية . بعض الزوارق الشراعية مرسومة باللون البني يليها أفق غامق الزرقة » . هذا اذن كل ما أتى به من فرنسا !

ــ أتعلم أنه حارس الملعب ؟

ــ أعلم ذلك ...

ــ ولا زوجة له ولا أولاد ؟

ــ أيضا ....

استرقت النظر اليه . كان ساكنا . عقب السيجارة على شفتيه . عيناه مثبتتان فى الافق . لست أدري فى تلك اللحظة لم أحسست بأن حانات فرنسا تأكله . وبالصقيع يحوله الى كتلة باهتة بعد سنين طويلة من العطاء .

ــ انه لا يتحدث الى أحد ..

ــ ذلك أفضل له ..

شيء ما يحفزني على الاستفسار منه عن سبب صمته . ولكن الحديث مع العائدين صعب . انهم يعودون وكفى ! بعضهم أعور ، بعضهم مصدور ، وبعضهم ..

ــ العودة مسألة صعبة . أليس كذلك ؟

ــ الهجرة شيء جميل لا يقوى عليها سوى المغامرون ..

وددت أن لو أصفع صاحبي . التفكه فى هذه الامور غير ممكن . لسنا على خط واحد . أحاول أن أجمع بين المنطق والعاطفة ولكنه يضرب بكل شيء عرض الحائط .

ــ العودة مسألة صعبة . نحن فى حاجة الى وزارة للمغتربين ...

رسل ضحكة طويلة :

ــ نعينك على رأسها ...

ــ وزارة تخطط للعودة الصحيحة ...

السكوت ليس سهلا . صاحبي يريد أن يتفكه مع أنه أدرى مني بالقضية . لديه اخوة فى فرنسا .

ــ أتريد لاخوتك أن يعودوا مكسورين مهزومين ؟

ــ لا يهمني الامر ..

ــ انك لا تعرف كيف تتجاهل القضية ..

أحسست بالفراغ فى تلك اللحظة بالذات . نظرت ناحية السور المطل على البحر فتملكني نوع من القرف « الجياد تعود من ساحة المعركة دون أن تبقى صالحة لشيء ، لاننا لم نعتن بها . انها تريد البقاء فى أرض المعركة ، ولكن المعركة تلفظها . فكيف تتداركها قبل أن تنفق ؟ » . هززت صاحبي :

ــ هيا تحرك ... « اللحم المتعفن يعود الى أهله دائما » .

2 ـ الزورق الذي انقطع حبله :

ـ .. أوه .. لقد جئت أزور الحي .

يده اليمنى فى جيب سرواله . اليد الاخرى تتأبط ذراع زوجته . لحية خفيفة تنبت فى وجهه . الصلع بدأ يغزو مقدمة رأسه مع انه لم يتجاوز الثامنة والعشرين .

ـ لقد ولدت فى هذا الحي يا جانين ...

وتنظر اليه زوجته بعينها الزرقاوين . بطنها منتفخ يحمل مخلوقا جزائريا . أسائل نفسي وأنا أسترق النظر الى بطنها : « كيف سيكون اسم الوليد ؟ » أبوه لا يزال محافظا على اسمه فيما يبدو .

ـ لقد تغير كل شيء فى الحي ...

ـ نعم ..

ـ لقد ذهب « نوربير » والسيدة « فانسان » ...

صوته لا يزال خفيضا يدل على حيلته الواسعة . ولكن يبدو لي أن مخه قد تغير .

ـ كيف وجدت الوطن بعد عشر سنوات من الغياب ؟

مط شفتيه ونظر الى زوجته مبتسما :

ـ فى الواقع جئت زائرا .. ولا أستطيع أن أصدر حكما ..

انتظرت أن يتخلى عن الحديث بالفرنسية لكنه لم يفعل .

ـ لقد نسيت العربية الدارجة ..

أحسست بأنني على شفير هاوية . خلال عشر سنوات فقط . أضاع اللغة التي هدهدته بها أمه . أفقت بعد قليل :

ـ انك تمزح ؟

ـ لا انها الحقيقة ..

المجادلة غير ممكنة . زوجته استندت برأسها الى كتفه . تظن نفسها في « سان جيرمين » أو في الحي اللاتيني . امرأة تطل من الباب المجاور ، لا يعجبها المشهد فتنسحب . أطفال يمرون بالقرب منا ثم يتوقفون ليتأملوا المشهد . « جزائري وفرنسي » . فراستهم لا تخطيء . « أحمد » تفوح منه تربة الوطن . اللغة التي يتحدث بها لا تخدعهم .

ـ هيا تفرقوا يا أطفال ...

ـ لقد زرت بلاد القبائل ...

ـ وهل أعجبتك ؟

مط شفتيه أكثر من اللازم . ثم ألقى نظرة جانبية على زوجته :

ـ انهم لا يزالون متأخرين في بلاد القبائل ...

الغصة في حلقي . أنظر اليه متصنعا الابتسام . لعله نسي أيام كنا نسرق البرتقال في ضواحي « حيدره » ونصطاد الطيور في « دالي ابراهيم » .

ـ ألا زلت تذكر أيام الصبا ؟

ـ بلى !

التفت الى زوجته وسألها اذا ما كانت متعبة . أطرقت برأسها الى الارض . انها لا تريد أن تعترف أمامي بأنها متعبة . نصحها بأن تستريح داخل السيارة . لعله يخاف على الجنين .

ـ هل الحياة فى باريس رائعة حقا ؟

ـ جيدة ...

ـ ألا تنوي العودة ؟

عينا زوجته تلتمعان ببريق حاد . تشد ذراعه بكلتا يديها لكأنها تخشى من جواب يحطم أحلامها :

ـ كلا .. انني لا أفكر فى العودة ..

الطمأنينة ترتسم على وجه زوجته . والارتياح يظهر عليه . استرق النظر الى زوجته وأسائل نفسي اذا ما كانت حقا من أسرة محترمة . يسكت أحمد فى انتظار أن أواصل الاستفسار عن حياته فى باريس .

ـ انني أعمل فى اصلاح المصاعد الكهربائية ...

وجه زوجته يشرق . يبدو عليها أنها تعتز بمهنة زوجها :

ـ فى الشهر الماضي كان يفكر فى الانتقال الى شركة أخرى ...

وتمسكت زوجته على أمل أن يواصل الحديث عن مزايا مهنته . تخيلته حينذاك وحقيبة الادوات فى يده ، ينتقل من عمارة الى أخرى ليتفقد سير المصاعد الكهربائية .

ـ انني أعمل فى الصباح فقط . أقوم بدورة يومية ...

ـ ان مهنتك سوف تدر عليك دخلا وفيرا ان انت عدت الى الجزائر بعد سنتين أو ثلاث ..

زوجته تعود الى شد ذراعه بكلتا يديها . لم تبدر منه أية اجابة . لعله لا يريد أن يقلق زوجته . انها فى الشهر الثامن . خطرت على ذهني آنئذ أغنية قبائلية : « باريس لديها مفعول السحر » .

عجبت آنئذ كيف أعاني من التمزق أنا الذي أعيش فى أرض الوطن ولا يشعر هو بأيما تمزق . وددت أن أسأله عن شعوره . لكنني أحجمت عندما تذكرت علامات الارتياح على وجهه . لست أدري كيف عقدت فى تلك اللحظة مقارنة بينه وبين زورق انقطع الحبل الذي يشده الى الشاطيء فجعل يبتعد وسط الامواج .

ـ لقد جاءتني أختي الى باريس قبل ثلاثة أشهر ..

أرفع اليه بصري دهشا . يضيف :

ـ لقد تزوجت أختي مرتين وهي الآن مطلقة.. انها فى الخامسة والعشرين انني لا أريد التدخل فى شؤونها مطلقا ..

ـ انها أختك ...

ـ لم تعد تهمني . لقد استطاعت الوصول الى باريس . الوسائل أمامها سهلة . انها تعرف عددا من الرجال ..

الدوار ينتابني . لا أجد ما أقوله . كلماته تتواتر على ذهني : « انهم لا يزالون متأخرين فى بلاد القبائل .. » « انها تعرف عددا من الرجال.. » خشيت أن تندفع مني الكلمات فتلعنه وتلعن زوجته وجنينها ومصاعده الكهربائية .

ـ نعم ... الوسائل سهلة أمام أختي ..

أنظر الى زوجته فأراها مغمضة العينين . مثل هذه الامور لا تهمها ولا تؤثر فيها مطلقا . لعلها هي الاخرى تعرف عددا من الرجال .

ـ جانين ! هل أنت متعبة ؟

فتحت عينيها .

ـ سنذهب اذا شئت ...

عاودت الاستناد برأسها الى كتفه .

ـ الافضل لك أن تستريحي ...

وغمزته بأن يأخذها الى السيارة . ثم مددت له يدي مصافحا دون أن أحس بالحاجة الى أن أحدد موعدا للقاء به ثانية .

ـ سوف أكتب لك من باريس خلال الاسبوع القادم .

عندما أدار محرك سيارته لاحظت أن زوجته قد ألقت برأسها على كتفه . ولم أدر آنئذ اذا كانت قد تصنعت هذا الحب الغامر . بل أحسست فعلا أنه زورق انقطع حبله وابتعد فى اتجاه البحر الواسع دون رجعة .

3 ـ الفرس المخدوعة :

عقب السيجارة لا يزال ملتهبا بين أصابعها . تدنيه من شفتيها وتشعل سيجارة أخرى . حركة آلية تقوم بها للمرة الخامسة أو السادسة . تسحب أنفاسا قصيرة سريعة . قدمها اليسرى تضرب الماء برتابة . بعض الاعشاب البحرية تسلقت رجلها ، واستقرت على الركبة . تنورتها قصيرة تظهر فخذين بيضاوين . علبة السجائر تستلقي فى حجرها .

ـ ستضرين بصحتك ...

ـ لا يهم ..

عيناها تحدقان فى حلقات الدخان . بعض الاحمرار يشوبهما . شعرها ينسدل على كتفيها ، تعلوه بعض الرمال .

ـ هل كنت نائمة ؟

أرسلت ضحكة مكدودة :

ـ لم أعرف النوم منذ ثلاثة أيام ...

تتحدث الفرنسية بطلاقة . يبدو لي أنها لا تعرف الشيء الكثير من لغة أهلها ..

ـ هل تحسنين السباحة ؟

ـ لا ..

رأسها اهتز يمنة ويسرة بعنف . الدخان احتبس فى تجاويف أنفها فالتمعت عيناها من الألم .

ـ فى باريس لا نتعلم السباحة . اننا نتعلم أشياء أخرى ..

غير بعيد من الصخرة التي نجلس عليها تجمع عدد من السباحين ينظرون الى فخذي الفتاة . بدت أنها لا تعيرهم اهتمامها ولكنها قالت بعد فترة :

ـ انظر اليهم .. انهم يأكلونني بنظراتهم ..

ابتسمت . منحتني سيجارة ، ووجهت نظراتها نحو عرض البحر .

ـ متى جئت من باريس ؟

قدمها اليسرى لا تزال تضرب الماء :

ـ قبل ثلاثة أسابيع ..

قلت متلعثما :

ـ جئت تزورين أهلك ؟

ـ أهلي في باريس ...

ظننت أنها تسخر مني . استعددت لاطرح أسئلة أخرى فرفعت يدها اليمنى نحوي :

ـ أرجوك ... لا تسألني ..

ـ انني أريد مساعدتك ...

عيناها بدأتا تطرفان من تأثير دخان السيجارة . حركة قدمها صارت متوترة . لم تعد تضرب الماء فقط بل تصطدم عن قصد بالصخرة .

ـ لقد جئت من باريس لازور قريبة لي . ولم تعجبني تصرفات هذه القريبة فهربت ...

قطعت كلامها فجأة وقد ظننت بأنها أطلعتني على سر خطير . السيجارة في يدها بدأت تتحول الى عقب ملتهب . سحبت سيجارة أخرى وأشعلتها بواسطة العقب .

ـ أنظر اليهم ... انهم لا يزالون يأكلونني بنظراتهم ..

ـ لانك جميلة ..

ـ لعل واحدا من رجال الشرطة يوجد بينهم ..

كلمة الشرطي جاءتني عنيفة حادة . نظرت اليها مستفسرا فقالت :

ـ لا تنظر الي هكذا .. الشرطة تبحث عني .. نعم .

ـ الشرطـة !

ـ نعم انها تبحث عني لتعيدني الى أهلي ..

أدركت تلك اللحظة سبب الاحمرار فيعينيها ، والرمال العالقة بشعرها .

ـ الملعونة ! لقد شكتني تلك القريبة الى الشرطة ..

كلامها كان غامضا . أكثر من ذلك ، أحسستني بأنني وقعت فى شباك قضية بوليسية ليس لي منها مخرج . انتابني نوع من الخذلان والخوف معـا .

ـ كرهت اليوم الاول تصرفات قريبتي وأمها .. لقد جعلتا من دارهما بيتا للمواعيد .. ورأيت بعض رجال الشرطة فى بيتهما . لقد أرادتا لي أن أعمل معهما . ظنتا أنني عاهرة لمجرد أنني جئت من باريس ..

سكتت وحدقت فى وجهي بحدة . شفتاها كانتا ترتعشان . ملامحها مزيج من الخوف والغضب . رفعت أصبعها نحوي :

ـ من أدراني بأنك لست شرطيا يطاردني ؟

عاودتني الشجاعة آنئذ فابتسمت :

ـ هل لدي سحنة شرطي ؟

ـ كــلا ..

ـ اذن ..

رأيت عينيها تلتمعان ثم تطفر منهما الدموع ببطء . لم تنتحب . أطراف عينيها ازدادت احمرارا .

ـ لقد هربت من السجن ووقعت فى بابه ..

استعصى علي كلامها . فوضعت يدي على كتفها :

ـ انني لا أفهم شيئا ..

ألقت بسيجارتها ، فطفت على سطح الماء وجعلت تنظر اليهـا وهــي تنفث . قالت بعد وقت :

ـ أقصد أنني هربت من بيت للمواعيد وصرت على موعد مع كــل الناس رغم أنفي ..

ابتلعت ريقي دون أن أحيد بنظراتي عنها . أحسست آنئذ بأنه يتعين علي أن أسرى عنهـا .

ـ لم لا تعودين الى أهلك فى فرنسا ؟

أغمضت جفنيها ، وتنهدت :

ـ يا ليتني أستطيع ..

ـ بل تستطيعين ..

عضت شفتها السفلى كأنما تذكرت شيئا فظيعا ارتكبته . وندت عنها حشرجة مكبوتة .

ـ انني لا أقوى على العودة .. لقد ضاجعني العديد من الناس هنا .. أمس فقط نمت هناك مع رجل فى ذلك البيت البحري ..

كانت تتحدث وكأنها لا تدري ما تقوله . بدا لي أن أفكارها كانت تسبق عواطفها . وأنها ستنفجر بعد حين .

ـ يجب أن تستسلمي للشرطة لكي يردوك الى أهلك ..

لم تعر اهتماما لما قلته .

ـ المهم أن تعودي الى أهلك .. لاشك أنهم سيقدرون وضعك ..

صدرت عنها أنات طويلة وهزات عنيفة من رأسها . بدأت تفيق من هول الصدمة . الدموع غاضت فى عينيها . وحدقت فى الافق ، وهي ترفع الجانب الأيسر من شفتيها بنوع من السخرية . ثم قالت بصوت خفيض ثقيـــل :

ـ لقد ضاجعني العديد من الناس ولست أقوى على العودة الـــى أهلـــي ..

وما لبث رأسها أن تدلى نحوي . وأحسست آنئذ بدموع حرى تستقر على صدري . ولم أعر أدنى اهتمام للسباحين من حولي .

22 سبتمبر 1974



تهويمات فى زمن الحرب

هو ذا الرحيل عن دمشق وما كادت القدم تلامس ترابها . من المطار الى سفح قاسيون عشرون دقيقة فقط . نفس المسافة من مطار الـدار البيضاء الى البريد المركزي .

المدينة تبدو خالية ، هكذا المدن زمن الحرب . زميلي صامت يبـدو عليه التعب ومع ذلك فعيناه تجوسان كل شيء .

ــ توقف من فضلك هل هناك صيدلية ؟

لحظات فقط ، وها هو يفتح العلبة التي اشتراها ويبتلع قرصين من الاسبرين على الريق . يبدو عليه أنه لا يحتمل لذعات البرد .

ــ هل سنمر بعيدا عن الجبهة ؟

السائق الاحول يتردد فى الاجابة . يريد لابتسامته أن تفصح عـن تواضعـه :

ــ انك فى الجبهة يا أخي ..

دمشق تبدو سمراء تحت سفح قاسيون . ضباب أسمر ينعقد فوقها . الضباب له لون آخر فى هذا البلد . لعله غبار المدافع تسوقه الريح نحو أعالي دمشـق .

ـ انه رادار . أليس كذلك ؟

السائق الاحول يصوب نظراته نحو جبل قاسيون المقابل .

ـ أجل انه رادار ..

ـ أتظنه فى المكان المناسب ؟

ـ أنا لا أعرف شيئا عن فنيات الرادار ..

تذكرت تلك اللحظة أن زميلي مهندس فى الموصلات السلكية واللاسلكية ؟ التفت نحوه ، فأدرك للتو ما أريده :

ـ أظنه فى المكان المناسب .

هذه الناحية من المدينة تشبه مدينة « الاصنام » . انها صغيرة والحركة فيها قليلة .

ـ ألا تتجول بنا قليلا وسط دمشق ؟

السائق يركز نظراته فى المرآة الصغيرة أمامه :

ـ أود ذلك ، ولكن سوف يفوتك الوقت ولن تستطيع آن تستقل العربة نحو بيروت .

خلع زميلي نظاراته السوداء .

ـ الافضل أن تتوجه الى محطة النقل الآن ..

حدست بأنه يعرف دمشق ولا يشعر بأدنى حاجة الى البقاء فيها .

ـ يبدو أنك تعرف دمشق جيدا !

ـ ألا تريد زيارتها اليوم ؟

ــ انني أعرفها .. •

ــ ولكنك لا تعرفها زمن الحرب ..

لم يعجبه الرد . أشعل سيجارة وجعل ينفث دخانها . انعطفنا يسرة فغاب عن أنظارنا جبل قاسيون .

ــ هل نستطيع رؤية جبل الشيخ فى طريقنا الى بيروت ؟

السائق الاحول يبتسم :

ــ لقد رأيته ونحن قادمون من المطار ..

ــ أتعني أنه ذلك الجبل الذي تغطي الثلوج قمته ؟

ــ نعــم ..

الشاي بدأ يثير أعصابي . أتمنى ألا أصاب بمغص وأنا فى الطريق الى بــيروت .

محطة النقل واسعة . ظننت انني سأركب حافلة نقل كبيرة ، فاذا بي سيارة لا تسع أكثر من خمسة ركاب .

ــ ألا تريد أن تتناول بعض المرطبات قبل الانطلاق ؟

ــ أنا مريض .. والافضل أن ننطلق الآن ..

الى جانب السائق السمين ، جلس شيخ يبدو عليه أنه فلاح .

ــ يا عم .. لقد حملت معك فائضا من الزيت والدقيق .

لم ينطق الشيخ .

سوف تجد صعوبات لدى الجمارك .

العربة تنعطف يسرة فيمنة . صفصافة سوداء عالية تنبت فى المنعطف ، وتحتها تسير امرأة ملفعة بالسواد بخطو وئيد ، لعلها فقدت عزيزا لها فى الحرب . زميلي أغمض عينيه ، الاسبرين لم ينفعه . وجهه ممتعض .

ــ كم من الوقت نقضيه فى الطريــق ؟

ــ ساعة وربع وتكون فى بيروت اذا لم ينغص علينا الطريق رجال الجمــارك ...

أشجار شديدة الخضرة ، تقوم على جانبي الطريق . بعض العربات تأتي فى الاتجاه المعاكس ، ليس هناك جنود ولا مدافع ، يبدو أننا سنمر قريبا من الجبهة .

ــ سوف نشاهد قمة جبل الشيخ على بعد ثلاثين كيلو مترا تقريبا .. أتمنى ألا تصيبنا رصاصات طائشة ، فنموت بدون غاية .

كتل من الاشجار الخضراء تسير القهقرى . الطريق خالية دائما ، حتى الفلاحون لا يعبرونها . انها تشبه تماما مدخل مدينة تيزي وزو وان كانت الخضرة هنا أشــد .

ــ هذا اذن هو بردى ؟

ــ أجــل ..

فتح زميلي عينيه ورفع نظاراته قليلا .

ــ هذا النهر غناه أحمد شوقي قبل خمسين سنة .

النهر جميل حقا ، هامات القصب تنعكس عليه فتلونه بخضرة باهتة . عبرنا جسرا ، صغيرا فعرج النهر الى اليسار .

الحرب لم تدع أية فرصة لبناء مركبات سياحية فى هذا المكان . لست فى حاجة الى أن يشرح لي السائق الموقف . يبدو اننا تتقدم الآن بسرعة نحو الجبهة . قمة جبل الشيخ الى اليسار دائما . لعل الحرب مرعبة وسط الثلوج . ولعل للرصاص وهو يدخل جسم الانسان لذعة فريدة من نوعها وسط الصقيع .

شاحنات عسكرية عديدة تسبقنا الآن، بعض الجنود يلبسون كوفيات . لعلهم من رجال المقاومة الفلسطينية .

ــ لقد خرجت هذه الشاحنات من دمشق قبلنا بحوالي ساعة ..

وسكت السائق ، لم استفسر منه عن سبب ابطائها فى الطريق ، لعل هناك سببا . انهم ذاهبون الى الحرب وسط الصقيع اذن . لحى البعض منهم عمرها أيام عديدة .

ــ دمشق فى زمن الحرب غيرها فى زمن السلم ..

السائق يركز عينيه فى المرآة لكي يستطيع رؤيتي .

ــ هل عرفت دمشق من قبل ؟

ــ كلا .

ــ يبدو من كلامك أنك تعرفها جيدا .

الشاحنات العسكرية انعطفت نحو اليسار . تمهل السائق ، فضممت يدي ورفعتهما بالتحية نحو الشاحنات ، أتاني الرد بأحسن منها ، أيادي عديدة ارتفعت ، وارتفعت الرشاشات والبنادق معها ، لعلها آخر مرة ترتفع هذه الايدي بالتحية ، من يدري فالصقيع والحديد المحمى ينتظرها.

بدأت السيارة تصعد وتتلوى وسط أشجار مخضرة . ها هي الاشجار الباسقة تفسح المجال للحشيش ولكل نبتة خضراء ، ما أشبه المكان ببلاد القبائل ! الفارق الوحيد هو أن أشجار الزيتون والخروب لم تنبت هنا . بعض الصخور تبرز رؤوسها وسط الحشيش . لقد خلقت فى هذا المكان لترصد شيئا مـــا .

ـ عندما ننتهي من الصعود ، نكون قد شارفنا الحدود ..

سلم السائق لي ورقة بيضاء صغيرة لأسجل عليها اسمي ومهنتي وسبب مجيئي الى دمشق .

زميلي نائم . أغلق النافذة منذ أن ابتعدنا عن نهر بردى . انه مهندس وليس شاعرا وهو لم يعرف دمشق الا زمن السلم ، ومع ذلك فالعكس ، يجب أن يحدث . من حقه أن يقدر هذه الطريق حق قدرها بعد أن عرفها زمن السلم .

برودة خفيفة بدأت تشيع داخل السيارة . الصقيع ينفث سمومه فى هذه الناحية . بعض الفجوات على عذاري الطريق تبرز تختفي عن أنظاري ، لعل رجال المقاومة يختفون داخلها .

ـ ما أجمل هذا المكان !

السيارة تنعطف يمنة فى منبسط من الطريق ، انها الآن تصعد .

ـ لقد حاول العدو قبل أيام أن يقنبل ذلك الرادار ولم يفلح .

السائق يمسح جبهته مع أن العرق لا يتصبب منها . الرادار فى مكانه على الربوة ، انني لن أسأل اذا ما كان الرادار فى مكان مناسب .

ـ أعتقد أنه مكشوف جدا ..

ـ من الضروري أن يكون مكشوفا وأن يكون فى مكان عال .

السائق يفحمني ، فأنا لا أعرف عن الحرب شيئا . جبل الشيخ يبرز ناحية اليسار بعض الوقت ثم يختفي وراء ربوة تكللها ثلوج متجمدة ، وفوق الثلوج مباشرة ضباب رمادي .

ـ أتعتقد انهم يتحاربون ؟

ـ ألم تشاهد الضباب الرمادي ؟ انه من آثار نيران المدفعية .

الطريق تضيق الآن . والسائق يتمهل ، مع ضيق الطريق يحاول السائق أن يتفادى الحفر العديدة .

ـ فى الاسبوع الماضي أبدلت لوالب العجلات ولا أريد أن أهشمها فى هذه الحفر .

زميلي لا يزال نائما . انه لا يريد أن يقدر هذه الطريق حق قدرها . لا شيء أمامنا سوى الحشائش المخضرة وهي تنحدر كلما ازددنا صعودا .

السائق يتوقف فجأة تحت شجرة الى جانب الطريق . زميلي يفيق :

ـ ما الذي حدث ؟ أهو عطل فى السيارة ؟

السائق يقرب أذنه من المقود . عينه اليمنى مغمضة .

ـ انها تقترب .

طيارة عمودية تبرز فى أعلى الربوة ، لعل السائق كان يصغي الى شخير محركها وهي تقترب . صار خبيرا فى هذه المسائل :

ـ انها طيارة عمودية اسرائيلية ..

الطائرة العمودية تحلق أمامنا فوق الطريق ، ثم تنحرف الى اليسار .

ــ لا .. انها سورية .

ما أصعب أن يموت الانسان بدون غاية ! الطريق خالدة ، ولكن موتى بها لن يخلدني ، ولكن هل يفهمني زميلي ؟ لا يبدو عليه أنه يقوى على الفهم على الرغم من تبحره فى مسائل المواصلات السلكية واللاسلكية الغبى ! ها هو قد أغمض عينيه الآن .

السيارة تنطلق من جديد .

ــ فى الاسبوع الماضي مرت فوقنا طائرة عمودية اسرائيلية .

ــ أليست هناك مدفعية فى المكان ؟

ــ لقد أمطروها وابلا من الرصاص .

ــ ثم ماذا ؟

السائق لا يجيب . يبدو لي أن حلقه يغص بشيء ما .

ــ لقد اقتربنا من جمارك الحدود ..

السماء غائمة . زميلي يرتعش من البرد . يعاود الجلوس داخل السيارة.

ريح باردة تلسعني ، الى الوراء تنحدر الطريق وسط الخضرة . اقترب من نافذة المقعد الخلفي .

ــ ليست هناك آثار للحرب مع اننا قضينا نصف ساعة وسط الحرب .

1974



الرطبُ واليَـابسُ

شمس شتوية تنثال أشعتها على الفسحة الرملية الواسعة وعـلى الحشائش الهمجية التي تنبت عند أطراف السور فى شكل سبخة صغيرة . الى اليمين تتكتل بناءات أميرالية البحر حول نفسها خوفا من البحر ، وتبرز قواعدها المدببة الحادة كأنها تريد أن تدرأ عنها أخطار المـوج الشتوي . تمتد هذه البناءات حتى تتعانق مع البحر فى شكل لسان صخري أسود اللون ، لشدة ما نطحته الامواج . فى جانب من الفسحة الرملية آثار أقدام مبعثرة . خط خفيف من الامواج يتقدم نحو الشاطيء ثم يرتد ، وتلتمع تعاريجه بأشعة الشمس . فى نهاية الفسحة الرملية ، مرقب صغير من الخشب الاحمر . هناك عسكري يجلس داخله على دكة وبندقيته بين رجليه . معطفه معلق فى الداخل . يبدو أن أشعة الشمس الشتوية تدوخه هذا الصباح ، انها أشعة جانبية ، لا تنطرح الا على جزء من رجليه وبندقيته . انه يواجه المدينة ، بدلا من أن يترصد البحر .

على مبعدة من المرقب الاحمر ، يقوم خط سلكي بمثابة حد فاصل بين الفسحة الرملية وبقية الشط . هذا الخط مشدود الى أسفل بنايـة ضخمة قيل ان قرصانا عظيما سكنها قبل ثلاثة قرون . جوانبها ترشـح برطوبة البحر ، والحشائش الهمجية تعانق أسفلها عنوة . هناك أطفـال عديدون يلعبون وراء الخط السلكي . يتقاذفون كرة كبيرة لا تخضـع لضربات أرجلهم . فى بعض الاحيان تتدحرج فوق الرمل ببطء ، ثم تقف

عند خط الموج . ثلاثة أطفال يتفون عند الخط السلكي ، وهم يتأملون العسكري الجالس داخل المرقب . حركاتهم توحي بأنهم يريدون الدخول الى الفسحة الرملية ، مهما كان الامر ، فالمجال رحب لتقاذف الكرة .

غير بعيد عن الشاطيء ، تنطرح زوارق عديدة على سطح الماء . يبدو أن الموجة الخفيفة التي تتردد على الشاطيء لا تؤثر فى الزوارق ، طيور بحرية عديدة تحوم فوق الشباك المنصوبة الى جانب الزوارق.لعلها تتحين الفرص لاصطياد السمك. لون البحر عند الشواطيء يضرب الى الخضرة . أما فى الافق فهو شديد الزرقة بسبب الامطار التي تهاطلت بالليل .

سحابة خفيفة من الدخان تنتشر عند مدخل المرقب الاحمر ، لعل العسكري يدخن ، فليس هناك من مصدر آخر للسحابة . رجلاه تستدان خارج المرقب ، تكشطان الرمل قليلا ، ثم تتوقفان . الاطفال الثلاثة يراقبون حركاته . يتبادلون نظرات مستفسرة فيما بينهم ، ثم يخطف أحدهم الكرة ، ويقذف بها ناحية المرقب . أخيرا عثروا على وسيلة للدخول الى الفسحة الرملية.يتقدم ثلاثتهم واحدا واحدا، وهم يتبادلون التعليقات والاشارات حتى يثيروا انتباه العسكري فيعرفوا ردود فعله ، ينحني أحدهم فيلتقط الكرة . وراء الخط السلكي وقف بقية الاطفال الآخرين ينتظرون أن تبدر حركة من العسكري. جمود مفاجيء يسيطر على الاطفال كلهم. يقوم العسكري من مرقبه متثاقلا ، ويسند بندقيته الى الداخل . فيتحرك الاطفال الثلاثة قليلا تحسبا لأية حركة تبدر عنه ، غير أنه يبصق عقب سيجارته على الرمل . ويتثاءب فى مواجهة الشمس . ثم يشير الى الاطفال الثلاثة بالتقاط الكرة ، والعودة للعب خارج الفسحة الرملية . وينتهز الاطفال الفرصة ، فيتناولون الحصى ، ويقذفون بها الطيور البحرية العديدة التي راحت تلتقط الحشرات البحرية داخل الفسحة

الرملية وينتهرهم العسكري ثم يرفع يده آمرا اياهم بالخروج ، فينصاعون لأمـــره .

من الاكيد أن هذا العسكري ينتظر من يخلفه فى الحراسة بفارغ صبر هو ذا يضع يديه فى جيبي سرواله ، ويخطو فوق الرمل بتثاقل ، ثم يحدق فى الشمس كمن افتقدها زمنا طويلا ، غير آنه بعد لحظة ينتبه الى أنه ترك بندقيته داخب المرقب ، وينظر ناحية الاطفال فى حذر ، ثم يتناولها ، ويعلقها الى كتفه ، يبدو انها تثقله ، غير أنه يشعر بطمأنينة فى وضعيته هذه ، الاطفال الثلاثة لم يعاودوا لعبهم ، بل وقفوا عند الخط السلكي ، وقد بدا على وقفتهم العزم على الدخول ثانية الى الفسحة الرملية . أحدهم يتجاوز المرقب والعسكري باشاراته . هناك شيء يسترعى انتباهه عند كاسرات الموج التي تقوم عليها بنايات آميرالية البحر . انه يحدث صاحبيه دون أن تحيد نظراته عن كاسرات الموج ، وتبدر منه اشارة مائلة ، يفهم منها صاحباه أن الدخول من الجهة الاخرى أيسر . فليس بها أي عسكري أو مرقب . أحد الطفلين يضع سبابته على صدغه متهما أياه بالجنون . ثم يشير الى بندقية العسكري ويرفع يديه . ويحركهما كمن يصوب بندقية . أنه يطرح الآن ساعده الايمن بشكل مائل كأنه يصف حركة انسان يصاب بطلقة نارية مفاجئة .

أشعة الشمس انسحبت قليلا عن الحشائش الهمجية النابتة عند أصل السور المطل على البحر . العسكري يقوم الآن بحركات رياضية لتدفئة جسده كأن أشعة الشمس لا تؤثر عليه . بين الفينة والاخرى ، يتوقف عن حركاته ويحدق فى الممر القائم فوق السور مباشرة أكثر من الناس الذين يعبرونه. بعد السور تقوم بنايات عديدة أكلتها رطوبة البحر ونهشها الملح. انها بداية المدينة. العسكري ينظر نظرة جانبية الى تلك البنايات، يبدو أن [illegible]ه وبينها حسابا قديما يريد تصفيته ، بين الوقت والآخر يعدل

من وضع بندقيته ويسترق النظر الى الاطفال الثلاثة . حركاته تشي بأنه يبيت شيئا ما ، انه لا يلتفت ناحية البحر أبدا ، مع انه مكلف بترصد ما قد يأتي من البحر . لعله اطمأن الى أن البحر لا يمكن أن يجيء الا بالسمك ، لا بالمدافع والنيران . لاشك الآن فى أن هناك حسابا ثقيلا بينه وبين المدينة. قبضته اليمنى ترتفع بقوة فى مواجهة البنايات . والمارة فوق السور يتوقفون قليلا ، ثم يعاودون سيرهم . الاطفال الثلاثة وضعوا أياديهم على خط السلك الحديدي كأنهم يستعدون لشن هجمة عنيفة على الفسحة الرملية .

أصوات الطيور البحرية ارتفعت دفعة واحدة ، انها تزيد من حدتها الآن . تحلقت كلها فى جانب من الفسحة الرملية. انها تنهش سمكة قذف بها الموج . السمكة كبيرة ، لعلها ماتت متسممة بالزيت المحروق الذي تقذفه البواخر من أحشائها فى عرض البحر . أصواتها تلفت انتباه العسكري . هو ذا الآن يوجه أبصاره ناحية البحر . لعله ازداد يقينا بأن البحر لا يأتي سوى بالسمك . ينحني قليلا ، ويتناول قبضة من الرمل ، ثم يقذف بها الطيور البحرية ، غير أنها لا تتحرك من مكانها . فالصيد سمين .

العسكري يلقي نظرة أخيرة على الطيور ، ثم يمسح البنايات بحركة سريعة من عينيه ، ويدخل مرقبه . هذه المرة لا يتخلى عن بندقيته ، بل يضع يديه فى جيبي سرواله ، ويكمش رجليه . الحساب بينه وبين المدينة يبدأ من هنا انه يسترق النظر الى الاطفال من فتحة جانبية صغيرة فى المرقب ، البحر وراءه ، والمدينة أمامه . يبدو أنه يتحداها بجلسته هذه . انه يترصدها الآن ، فقد كف عن استراق النظر الى الاطفال . لعله يريد أن يترك المجال مفتوحا أمامهم ، فيسهل بعد ذلك الانتقام منهم لأنهم بداية المدينة .

الاطفال اطمأنوا الى أن العسكري قد أخلد الآن الى الهدوء . يتقدمون واحدا واحدا ، وعندما يقتربون من المرقب يجابههم بصورة مفاجئة ، ينزع البندقية من كتفه ، ويشدها من بطنها بقضبته اليمنى . حركات سريعة تبدو منه . انها متبوعة بأصوات آمرة . الاطفال تجمدوا فى أماكنهم ، العسكري يشير الآن الى البنايات ، ويحرك يده الى ما وراءها. الخوف بدأ يزايل الاطفال ، لانهم يستمعون الآن الى العسكري بامعان . بقية الاطفال وراء الخط السلكي توقفوا عن اللعب ، وجعلوا ينظرون الى العسكري . أحد الاطفال الثلاثة يخاطب العسكري مشيرا نحو كاسرات الموج ، غير أنه يقاطعه بحركات عصبية وكأنه يقسم الايمان بأن لا شيء هناك عند كاسرات الموج . الحديث صار مشوقا الآن ، فالاطفال ازدادوا اقترابا من الخط السلكي ، وراحوا يصغون الى ما يدور بين العسكري ورفاقهم الثلاثة . ينسرب واحد منهم الى الداخل . فيتبعه آخر ، وثالث ورابع ، ويجتمع شملهم عند المرقب الحديث صار وديا الآن بينهم وبين العسكري . انهم يتبادلون الضحكات . العسكري يعيد البندقية الى كتفه ، يصمت قليلا ، ثم يسرح نظراته فى الاطفال كلهم . صمت ، مفاجيء ساد بينهم . لعلهم يخشون أن يتخلى العسكري عن البهجة التي غمرته ، ولكن هو ذا يفاجئهم بحركة سريعة من يده مشيرا اليهم بالدخول للعب بالقرب من كاسرات الموج .

أصوات الفرح تتعالى بينهم بغية. يندفعون كلهم الى الداخل تحت أنظار العسكري . الطيور البحرية تضرب بأجنحتها فى الجو خوفا من الاطفال ، وتنطلق فى اتجاه الزوارق بحثا عن صيد آخر . فترة وجيزة وينتشر بعدها الاطفال فوق كاسرات الموج . ويتقاذف البعض منهم الكرة فى جانب من

الفسحة الرملية الواسعة . يبدو أن العسكري صفى حسابه مع المدينة ، فقد أعطاها ظهره ، وواجه البحر . عيناه تمسحان الشاطيء بطوله ثم تستقران على الزوارق العديدة المنطرحة فوق الماء . لون البحر عند الشواطيء يضرب الى الخضرة ، أما في الأفق فهو شديد الزرقة بسبب الأمطار التي تهاطلت بالليل .

1976

جَرَادُ البَحْر

رائحة الاعشاب البحرية اليابسة تزخم أنفه . لشد ما تزداد رائحتها تعفنا فى قلب الليل ، لعل الرطوبة تساعدها على اخراج ما فى بطونها . الزورق منطرح على الرمل ، وقد انعكست على جوفه أضواء ليس يدري مصدرها . فالقمر غائب ، والنجوم بعيدة جدا . خرخرة الموجة تتردد بانتظام على الرمل ، تتطامن قليلا، وتعاود الكرة. فى الجانب الايمن يزحف الكثيب الرملي على ربوة غارقة فى العتمـــة بسبب القصب الملتف فى تعاريجها ، وفى الجانب الايسر تنعرج صخرة هائلة حول نفسها ، فتشكل خليجا صغيرا يحول دون هجمات الموج حين هياج البحر.وفوق تلك الصخرة تقوم منارة صغيرة ، كان لها شأن فيما مضى ، عندما كانت الزوارق تؤم هذا الخليج الصغير . أما اليوم فانها تضىء فى الليل ، ولكن دون أن تهدى أحدا . علىَ مبعدة قليلة من الخليج الصغير ، تقوم صخور عديدة تبدو مدببة فى جنح هذا الليل . ضوء المنارة لا ينعكس على صفحة الخليج ، ولا على الصخرة ذاتها ، ربما لأن المنارة مرتفعة جدا .

الزورق لا ينتظر الا دفعة قليلة ، لينزل فوق الماء . فالموجة تلحس مقدمته قبل أن ترتد . انه يغريه بالنزول ، ولكنه سرعان ما يعود الى يأسه . عقب السيجارة يلتمع فى شفتيه ، ويداه تستندان الى السور

العريض . انه يحس بنوع من القشعريرة تسرى فى جسده . الافضل له أن يشعر بالبرد بدلا من الحرارة فهي تزيد من ضغط دمه . وقد نبهه الطبيب الى الابتعاد عن الصيد ، لأن حرارة الشمس قد تسبب له ذات يوم انفجارا فى شرايين مخه . انه لا يكف عن الشكوى من الصداع الذي لا يبرحه . لقد اشتد عليه خلال السنتين الاخيرتين . ولكن ليس له من مناص . فعليه أن يخرج للصيد مهما كان الجو ، فهناك خمسة أفواه تنتظره . ثم ان عليه أن يعتني بنفسه أكثر من اللازم ، فلولاه لانقطع الرزق عن تلك الافواه . الاعوام الستون التي يحملها لا يجب أن تحول بينه وبين الصيد . الغلطة الوحيدة التي ارتكبها فى حياته هي زواجه فى سن متقدمة من امرأة ولود ، أعطته خمسة أفواه فى ظرف سنوات معـدودات . سحبَ نفسـا أخيـرا ، وبصق العقب . فعليه آن ينزل الآن الى البحر ، والا فاته صيد سمين . انها الثالثة صباحا ، وليس هناك من صياد يغامر فى الخليج سواه . ثم ان جراد البحر يخرج من مخابئه فى مثل هذا الوقت . فعليه اذن أن ينصب شباكه الصغيرة حول الصخور المدببة .

بعد قليل سيبزغ الفجر ، وقد تمر احدى زوارق الحراسة فتلقى عليه القبض . الافضل له اذن أن ينصب شباكه ، ويعود الى الشاطىء بسرعة . الملاعين ! لقد أخذوا كل شيء ، ولا يزالون على جشعهم . لديهم شركة صيد ، ونقابة صيادين ، ومع ذلك فهم يريدون منه أن ينضم الى نقابتهم تلك . لقد سبق لهم أن طلبوا منه اقتناء آلات المراقبة والانقاذ الضروريه على سطح زورقه ، واشتراها . وطلبوا منه الحصول على ترخيص من جمعية البحارين ، فحصل عليه مقابل أربعمائة دينار . فما الذي يريدونه منه الآن ؟ لعله يتغابى ! الحقيقة واضحة أمامه . انه الوحيد الذي يعرف طرق اصطياد جراد البحر ، ويعرف مخابئه ، والوقت الذي ينصب فيه

شباكه . انهم يريدون منه معرفة كل ذلك . وهذا يعني أنه سيقضي جوعا هو وأفواهه الخمسة . لقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، طلبوا منه أن يبيعهم صيده كل يوم حتى يقوموا بتسويقه . لكنه رفض . وهو يعلم جيدا أن لا حيلة له سوى الرضوخ لاهوائهم ذا تيوم . لقد صاروا يرسلون زوارق الحراسة لتترصده فى الخليج . واستطاع حتى هذه اللحظة أن يخادعهم ، ويختفي وراء الصخور ، فهو يعلم أنهم لن يغامروا بزوارق الحراسة بين تلك الصخور المدببة . وبقى لهم سبيل واحد للانقضاض عليه . سوف يأتون ذات يوم بزوارقهم من الطريق .

تحرك قليلا ، واستعد لنزول الدرج المنعرج . القفة فى يده ثقيله ، ورائحتها لا تقوى على أن تطغى على رائحه الأعشاب البحرية ، مع أنها تحمل فى جوفها السردين والسراطين البحرية التي حصل عليها قبل أربعة أيام . انه لا يشعر الآن بأيما صداع ، الا أن عينيه قد فقدتا حدتهما نوعا ما . بل ان هناك زرقة خفيفة تعلوهما. لقد قال له الطبيب انها بداية الجلوكوما ، فلم يفهم شيئا مما قاله . الافضل له أن يزداد اعتناءا بصحته ، وخاصة بعينيه . فلولاهما لكان وقع بين أيديهم . فرك ذقنه قليلا ، وقد عاوده اليأس . لو نزل الان لفاجأوه ، ولو أحجم عن النزول لفوت على نفسه فرصة الحصول على صيد ثمين ، فما العمل .

عاود الاستناد الى السور ، وتفحص ساعته انها الثالثة وعشر دقائق . جراد البحر يخرج من مخابئه فى مثل هذه الساعة . عليه أن ينزل مهما كان الحال ، خاصة وأنه اتفق مع أحد أصحاب المطاعم على تزويده بجراد البحر كل يومين . يجب أن يفي بوعده ، والا أضاع خبز أفواهه الخمسة . الكلاب ! انهم يريدون شراء جراد البحر بثمن رخيص لكي يبيعوه الى أصحاب المطاعم . لم لا يقوم بذلك هو ؟ لقد اضطلع بمثل هذا العمل

قرابة أربعين عاما . رأى العديد من أصحاب المطاعم ، وتعاقد معهم . ووفى بوعوده . أتراه كبر الآن ، ولم يعد يقوى على مثل هذا العمل ؟ الملاعين ! لقد أخذوا كل شيء . انهم يريدون البقية . ولكن هيهات ! لو كانت لديهم نية حسنة لجاؤوه بطريقة أخرى . فهم يعلمون أن لا أحد بينهم يحسن صيد جراد البحر . أما كان من حقهم أن يأخذوه معهم ويستفيدوا من تجربته ؟ انهم يريدون كل شيء بسهولة . بالامس القريب فقط ، كانوا يحملون السلع فى الميناء على ظهورهم ، واليوم أضحـوا صيادين مهرة !

أشعل سيجارة جديدة ، فأحس بحرقة فى عينه اليمنى . هذه العـين بدأت تعجز عن تبين الاشياء فى قلب الليل . وقد تخدعه ذات ليلة ! من يدري ، فقد يكونون الآن مختفين وراء الصخور المدببة ؟ كلا ، انهم لن يغامروا بذلك . البحر لا يفهمه الا الذي يعشقه . وحتى الذين يعشقونه لا يغامرون فيه . انه يعرف هذا الخليج جيدا . يستطيع أن يرسم صورة لقيعانه ، والصخور التي يحتوي عليها . انهم لن يخدعوه !

الاعوام الستون تثقل عليه . انه يحس بها الآن . حبذا لو انه لم يتزوج ، لكان أذاقهم ألوانا من السخرية . الافواه الخمسة مصيبة وقعت عليه فى كبره ، وجراد البحر ينتظره . عليه أن يسرع بالنزول والا فاته الوقت . هيهات أن يخضعوه لاهوائهم !

ونزل قليلا فى الدرج ، ثم تردد فى وقفته . انه خبز الافواه الخمسة ولا يحق له أن يغامر . لقد تواعد مع صاحب المطعم وينبغي عليه أن يفي بوعـده . ولكن من يدري فلعل صاحب المطعم أن يكون واحدا من المتعاونين معهم ! لقد عرف فيما مضى أن أصحاب المطاعم والمقاهي كانوا يتعاونون مع رجال الشرطة ، ولعلهم اليوم يواصلون مهمتهم هذه !

وهنا داخله الشك فى كل شيء . انهم يعرفون بيته ، وقد يذهبون فى جنح هذا الليل ويسألون زوجته عنه ، فما عساها تقول لهم ؟ وعاود صعود بعض الدرجات . غير انه لم يتشجع على العودة الى بيته . خبز الافواه الخمسة يناديه ، ولا يحق له أن يهمله . لو أنه ظل على عزوبته لسخر منهم ! عليه اذن أن يرضى بالواقع ، فهو ان لم يقع بينهم الليلة ، سوف يكون فريسة لهم فى ليلة قادمة . وعاود نزول الدرج ، وهو يلعن الدنيا فى قرارة نفسه . الكلاب ! بالامس القريب فقط كانوا ينقلون السلع على ظهورهم حتى تتهرأ جلودهم ، واليوم ينغصون عليه عيشه بعد أن قضى أربعين سنة فى البحر . الافضل له أن يقلع عن السب والشتم ، فقد تفلت منه فرصة الحصول على صيد ثمين . جراد البحر يناديه . انه يشعر بندائه حقا . فالزمن كفيل بأن يخلق الاعاجيب . هذا هو الفرق بينه وبينهم .

خطا خطواته الاولى على الرمل . ثم توقف ، ونقل بصره فى أرجاء الخليج . الكلاب ! قد يكونون بالمرصاد . المنارة هذه سوف يكسرها ذات يوم . انها تساعدهم . لولاها لما وجدوا طريقهم الى هذه الناحية من البحر . عليه اذن أن يكسرها . ان أراد أن يضمن خبز الافواه الخمسة . هذا هو الشرط الرئيسي الذي لا مناص منه . عليه أن يكسرها .

فى هذه اللحظة بالذات ، سمع صفيرا حادا قادما من الربوة فى الجانب الايمن من الخليج . وأحس برعشة الخوف تعروه . لعلهم تبادلوا الكلمة لالقاء القبض عليه . قد يكونون وراء القصب الملتف . ووقف فى مكانه ، وقد غاصت رجلاه فى الرمل الندى . وانتظر هنيهة عساه يرى واحدا منهم . شعر آنئذ ان عليه أن يصرخ فى جنح الظلام حتى يستثيرهم . غير انه فوجىء بصفير آخر حاد ، وبطائر ضخم الجثة يخرج من قلب القصب ويعرج فوق الخليج ثم يغيب .

ولم يجد بدا فى تلك اللحظة من أن يرسل تنهيدة طويلة ، شفعها بضحكة قصيرة على غير وعي منه . ثم انه ثنى سرواله وطرح قفته داخل الزورق . غير انه قبل أن يدفع بالزورق الى الماء ، القى نظرة أخيرة فى اتجاه السور ليتثبت من أن أحدا منهم لم يتبعه فى جنح الظلام .

عندما انزلق الزورق فوق سطح الماء ، أحس بخفقان شديد فى صدره. ولم يدر ما اذا كان ناتجا عن الخوف أم عن السرور . حبذا لو أنه لم يتزوج ، لكان أذاقهم ألوانا من السخرية . خبز الافواه الخمسة يناديه ، وصاحب المطعم ينتظر منه دفعة من صيد سمين . وهؤلاء الملاعين يطلبون منه أن يبيعهم صيده ، وينضم الى نقابتهم . هذه المرة أفلت منهم ، وقد يقع بين أيديهم ذات ليلة .

1976



الزوبعة الخضراء

شيء واحد يؤرق الطفل منذ أن صار يصعد الى السطح . انه السور وما يخفيه وراءه . قامته لا تكاد توازي ربع هذا السور الذي انغرزت فى أعاليه عشرات القطع الزجاجية حتى لا يقوى أحد على اجتيازه . بصره لا يسمح له الا برؤية سقف الكوخ القائم وراء السور مباشرة . وأعالي أشجار التين التي تنبت فى أماكن عديدة من المرتفع الترابي . فيما عدا ذلك لا يعرف شيئا عما يحدث وراء السور ، عندما يعجزه هذا الحاجز يحول نظراته نحو الجبل المقابل ليتأمل ما يحدث فيه من حركات .

مع الايام ازداد أرق الطفل . أحس بضرورة معرفة الحياة وراء السور . ولم يجد بدا من استدعاء شقيقته الكبرى حتى تساعده على قضاء وطره ترددت فى البداية ، ثم حاولت رده عن عزمه ، غير أنه ازداد اصرارا ، وضرب السطح بقدميه . واذعنت له آخر الامر . فجاءت بكرسي وقفت فوقه ، ورفعته حتى حاذى القطع الزجاجية برأسه. غير أن نظراته ارتدت اليه خائبة. فهو لم يبصر سوى سقف الكوخ وأعالي أشجار التين ، وشعر بالخيبة تزحف عليه زحفا ، غير أن بقية من الاصرار ظلت مستقرة فى نفسه . انه لا يعقل أن تكون الحياة ساكنة وراء السور . ووجد نفسه يتساءل اذا ما كان الجيران فى الكوخ لا يريدون معرفة ما يحدث وراء السور بدورهم .

وقال لعل المشهد ألا يحثهم على ذلك . قد يكون مشهدا عاديا . سور ، ووراءه ينتصب الجبل .

ظل الطفل حائرا لا يدري ما يفعله . السور أمامه ، ولابد أن هناك شيئا وراءه . فسقف الكوخ لا يكفي ، وأشجار التين هي الاخرى ليست هي كل ما يوجد وراء السور . وعاوده نفس الاصرار الاول . فاستدعى شقيقته مرة ثانية . لم تتردد هذه المرة ، لانها تعلم أن لا جديد هناك . ولا يمكن أن يحدث شيء خارق للعادة . فعليها اذن أن تلبي رغبة شقيقها الاصغر مرة ثانية .

طلعت الى السطح ، وهو ممسك بتلابيبها . هذه المرة كان حزن طفيف يهيم فى أعماقه . حدس وان هناك شيئا يجب أن يحدث . قال بأن السور يخفي وراءه شيئا ولذلك ينبغي معرفته . لكأنما جال بخاطره أن الساعة أزفت لكي يفضي السور بما يخفيه . شمس الظهيرة ملتمعة . والطفل يشعر باحتراقات فى قدميه من أثر الحرارة المنتشرة فى السطح . ازداد تمسكا بتلابيب شقيقته . قالت لنفسها انها ستنظر هذه المرة وراء السور ولن يسألها بعد ذلك . دفعت بالكرسي فأسندته الى السور ، ثم انها وقفت فوقه . وانكمش هو وراء الكرسي ، يحدق بعينيه فى نقطة ما من السور . لم يكن ينظر فى تلك النقطة بقدر ما كان يفكر . وأحس فجأة بأن شقيقته تجمدت فى وقفتها تلك فوق الكرسي . فقد حدث شيء ما لا يدريه . واندفع قلبه فى الخفقان . ولم يجرؤ على رفع بصره نحوها . بل حوله نحو قوائم الكرسي ، وسرت رعشة فى الكرسي انتقلت اليه . على الرغم من الابهام الذي اعتراه قال بأن هناك شيئا قد حدث فعلا . أشجار التين لا يمكن لها أن تقدم هذا الشيء . ليس هناك اذن سوى الكوخ ! وتساءل وهو فى غمرة ذلك الاحساس المبهم اذا ما كان يتعين عليه أن يقوم ، ويسأل أخته عما حدث . غير أن جمود الكرسي أمامه لم يشجعه فلينتظر ما عسى أن تقول شقيقته .

ومرت دقائق لم يحدث خلالها شيء جديد . ولم يغير الطفل من حركته. بل ازداد انكماشا حول نفسه الى جانب الكرسي . أحس بأشعة الشمس تقع على ظهره مباشرة ، وبالعرق يتصبب من جبهته مع انه كان مغرقا رأسه لصق الكرسي . هذه المرة تحول أرقه الى الكرسي . انه هو الرباط بينه وبين ما يحدث وراء السور . كل اهتزازة فى الكرسي تعني أنها ارتعاشة تعتري شقيقته من جراء ما يحدث . وازداد قلقه ، وان كان نوع من السرور المبهم قد بدأ يشيع فى نفسه . فقد أيقن بأن ما كان يريد معرفته قد حدث فعلا . وتراوح بين القلق والسرور المبهم . انه لن يتحرك من هذا المكان قبل أن يعرف ما يحدث . الحرارة سوف يتحملها . بل انه سوف يحتمل هذه الانكماشة الى جانب الكرسي .

هزة اضطرب لها الكرسي ، أحس من خلالها أن العلاقة بين شقيقته وبين ذلك الشيء وراء السور قد بدأت تتوطد . حبذا لو استطاعت أن تصف له كل شيء . انه لا يستطيع أن يتخيل أكثر من سقف الكوخ واشجار التين . وتساءل عن نوع ذلك الشيء ، غير أنه لم يهتد الى جواب الكوخ لا يمكن أن يلد شيئا لا يعرفه فى لحظات . واشجار التين لا يمكن لها أن تأتي بشيء آخر غير التين والاوراق الخضراء .

وقعت أنظاره على نملة عند أصل السور . كانت هائمة ، لا يبدو عليها انها تأثرت بالحرارة . التقطها ووضعها على راحته دون أن يغير من انكماشته الى جانب الكرسي . لاحظ أن النملة غير مرتاحة فى وضعها ذاك ، فجعلت تبحث يمينا ويسارا عن مخرج لها وهو يعوقها . غير أن هزة عنيفة فى الكرسي دفعته الى أن يترك النملة وشأنها ، ويفتح أذنيه عساه يلتقط ما يحدث من حركة وراء السور . ولم يجده ذلك نفعا .

وانتظر أن تحدث هزة أخرى . حاول هذه المرة أن يرصدها منذ بدايتها ثم انه قرب أذنه اليمنى من السور ، وترك الاخرى تلتصق باحدى قوائم الكرسي . لعله بهذا الوضع يستطيع أن يلتقط الهزة بمجرد حدوثها . وكانت محاولته تلك بغير طائل .

الحرارة صارت غير محتملة . أشعة الشمس تقع الان على جانب من قفاه ويحس بها محرقة . بدأ يفيق الى أن شقيقته قد اجتذبها منظر ما وراء السور والا لما بقيت هذا الوقت كله دون حركة أو كلام . الشمس لم تؤثر عليها ، مع أنها تقع على كامل جسدها . لابد وأن هناك شيئا غريبا يحدث وراء السور . ينبغي أن يعرفه مهما كان الحال . لن يغادر هذا المكان حتى ولو احرقته الشمس . ووجد نفسه يحرك رأسه قليلا الى الامام ثم يرفع بصره ببطء نحو أعلى السور ليقع على القطع الزجاجية المنغرزة فيه . كانت ملتمعة تحت أشعة الشمس . رأس شقيقته كان متجها الى اليسار قليلا. بدا عليها وأنها مأخوذة بشيء ما. وأحس فى تلك اللحظة بالغيرة تنهش صدره . لقد انقلبت عليه شقيقته . جاء بها لتساعده فاذا بها تستأثر بما يحدث وراء السور لنفسها . هل يصرخ الآن أم يصبر ؟ لو سكت عنها لافلت منه المشهد . عليه اذن أن يقوم ويطلب منها أن ترفعه حتى يحاذي القطع الزجاجية برأسه . وهو يستعد للقيام سرت رعشة فى الكرسي دفعة واحدة كادت تسقط لها شقيقته . وأحس على اثرها أن وقفة شقيقته تلك لم تعد محتملة . سوف يصرخ حتى يسترعى انتباهها ، لانها صارت ذاهلة عنه تماما . بل لعلها نسيت وجوده كله.وهم بالوقوف ، فبلغته ضحكة قصيرة ندت عن شقيقته، ثم أعقبتها صفقة باليدين عبرت بها عن سرورها . ولم يجد بدا من الصراخ نحوها . ولم تعره اهتمامها باديء الامر ، ثم انه لما أثقل عليها أفسحت له مكانا على الكرسي ، ورفعته حتى حاذى القطع الزجاجية برأسه . لم

يشاهد شيئا فى البداية كانت عيناه تؤلمانه من أثر العرق الذي تسرب اليها . ثم ان نظراته استقرت على سقف الكوخ لتكشفا عن هذا الشيء الذي يحدث وراء السور ، وانتقلتا بعد ذلك نحو أعالي أشجار التين فلم تعثرا على هذا الشيء . وجعلت شقيقته تهتز من الضحك بسبب الذهول الذي اعتراه . غير انها لما لاحظت قلقه ، أمرته بأن يحول انظاره نحو اسفل السور مباشرة ففعل .

احساس غريب انتابه . شعر وأن بابا ينفتح أمامه ببطء ، ونفسه تنفتح مع هذا الباب . رأى تحت السور مباشرة طفلة فى مثل قامة شقيقته . وجهها مدور ، يبرز فيه حاجبان أسودان مقوسان ، وشفتان قرمزيتان دقيقتان وخيل اليه لبضع ثوان انه يشاهد دمية كبيرة . فقد كانت الطفلة واقفة فى مكانها لا تتحرك . ورآها آخر الامر تبتسم ، وحمرة خفيفة تنتشر فى كامل وجهها . ولم تقل تلك الطفلة كلمة ، واحجمت شقيقته هي الاخرى عن أية حركة أو كلام . وأحس الطفل لحظتها أن كل شيء يتمدد أمامه فى شكل متصاعد لا يعرف أي معنى له ، وان كان يدرك أن الالوان القرمزية والخضراء والسمراء المحترقة قد تداخلت كلها فى ذلك الشكل .

1976

البوتقة

مطر غزير ينهمر على الساحة الواسعة . بعض الانوار تنعكس عليها في شحوب . عليه أن يقطع الساحة من هذا المخبأ الى الطرف الآخر حيث ينتظره رفيقه . بدأ السير وكأن المطر لا يؤثر فيه . سروال قصير يصل حتى الركبتين وقميص أحمر لا يبدو عليه أنه نظيف وسط هذه الظلمة . يداه في جيبي سرواله القصير . المطر يقع على رأسه في عنف وهو يريد أن يسرع خطوه. كل ما فعله الآن هو انه قوس ظهره قليلا حتى لا ينزلق على صدره. خطواته تقع في انتظام على أرض الساحة التي اغرقها المطر دفعة واحدة .

لعل الساعة أن تكون قد بلغت التاسعة ليلا . فالظلمة شديدة على الرغم من أن الصيف في عزه . المطر مفاجيء ، وهو لا يدري له سببا. لقد تبللت ثيابه كلها الآن مع أنه لم يقطع أكثر من ستين مترا . والطرف الآخر لا يزال بعيدا . صاحبه لا يظهر، لعله يكون منكمشا حول نفسه في الظلمة . تحسس جيب سرواله الايمن فأحس بالقطع النقدية تتلاصق فيما بينها . انها مبللة بعض الشيء . ازداد ظهره تقوسا عندما ركز الفكر في صاحبه . المطر لا يؤثر فيه الان . عليه أن يقطع الساحة كلها ، فهو ينتظره هناك لعله يكون غاضبا . ولكن لم يتعين عليه أن يذهب الى صاحبه ؟ قفز السؤال فجأة في ذهنه ، فتوقف لبضع ثوان وسط الساحة تحت وقع المطر . رجلاه تبللتا حتى الركبتين ، اما ثيابه فقد التصقت بجسمه ، الماء

تسرب الى حذائه وهو يحس برجليه الآن تنزلقان قليلا داخل الحذاء . لم لا يعود القهقرى ويأخذ كل ما لديه من نقود لنفسه ؟ وبدأت الفكرة تزداد الحاحا فى نفسه . لقد اقتسم النقود دائما مع صاحبه طوال الاشهر الماضية ، مع أنه هو الذي يخاطر بنفسه ، فيتردد بين ركاب الحافلات وينشل منهم حافظات نقودهم . وتباطأت خطواته فى الساحة . حبات المطر كانت تقع على الارض ، ثم تنفجر قليلا ، ويرتفع منها بعض الزبد ؟ توقف دفعة واحدة فى الساحة تحت وقع المطر العنيف ، واخرج يده اليسرى من جيبه ومسح بها جبهته وعينيه ، غير أن الماء راح يتقاطر من مقدمة شعره ، هل يتقدم أم يتراجع ؟ ينبغي عليه أن يعمل شيئا ، لقد خاطر بنفسه دائما ، فلم يقتسم نقوده مع صاحبه ؟ انه يعلم انه أكبر منه سنا ولكن هذا لا يخول له حق اقتسام النقود معه ، لعل صاحبه يراه الآن ، لعله يرقب حركاته . من ادراه بأنه لاينتظره بقطعة خشبية ليشبعه ضربا . فلقد تأخر اليوم طويلا عن موعده ؟ ومن ادراه بأن صاحبه لم يذهب الى الخمارة التي يلتجيء اليها كل مساء ؟

المطر ازداد عنفا . والسماء أبرقت ، فبعثت فيه بعض الخوف . غير أنه لم يتحرك من مكانه . المطر يهطل بشدة على البقعة التي يوجد عليها . حذاؤه يغوص الآن فى برك الماء الصغيرة التي تكونت فى الساحة . ينبغي عليه أن يتخذ قراره اللحظة . لن يتقدم خطوة واحدة الا فى صالحه ، لو بلغ الطرف المقابل دون أن يحسب حسابا للمقابلة مع صاحبه لضاعت منه النقود ، عليه أن يفكر جيدا اذن فى هذه القضية ، أمس فقط راودته الفكرة ، غير أنه لم يعرها اهتماما كبيرا . أما الآن فهذا المطر العنيف يحثه على اعادة النظر فيها . انه لن يتقدم . وأبرقت السماء من جديد ، غير أن الخوف لم يداهمه . لقد صار يعرف أن الخوف لا وجود له الا فى المرة الاولى . أدرك ذلك منذ أن ألقوا القبض عليه

وهو ينتشل حافظة نقود من قفة احدى العجائز فى الحافلة ، اقتادوه الى مقر الشرطة ، واستطاع الفرار . ذلك الخوف الذي اعتراه لم يعد له وجود فى نفسه تماما . الافضل ألا يعيد التفكير فى ما مضى فقد التصقت ثيابه بجسده . وشعر بنوع من البرودة تسرى فى جانبيه . درجة الحرارة لم تتغير مع ذلك فى الجو . جسده هو الذي برد قليلا لو حدث وتقدم الى الطرف المقابل ، وتمرد على صاحبه ، فهل يقوى على مصارعته ؟ سؤال جديد انبثق على حين غرة فى رأسه . ولم يكن الجواب دفعة واحدة . هذه الليلة ينبغي أن يصفى حساباته معه ، كل ما يكسبه من الانتشال يجب أن يعود اليه .

وخطا خطوات الى الامام وقد عقد العزم على أن يحتفظ بالنقود كلها لنفسه . الطرف المقابل كان غارقا فى الظلمة ؟ هناك جدار عال لاحد المساكن القديمة يلقي بظله على نهاية الساحة . لعل صاحبه ينظر نحوه الآن . ولعله قرأ ما يجول فى نفسه ، لا يمكن أن يخطيء هذا الامر . فكل شيء مكتوب أمامه . المطر الغزير لا يؤثر فيه ، فهو واقف تحت رحمته ، وجيبه مليء بالقطع النقدية . صاحبه هذا شيطان يعرف كل شيء فى دخيلته . هو الذي علمه كيف ينتشل حافظات النقود عند العجائز ، والشيوخ والفتيات ، وهو الذي علمه أيضا كيف يركب الحافلة دون أن يدفع ثمن التذكرة وكيف يتخفى عن أنظار المراقب ، بل انه علمه كيف يفتح باب الحافلة بمفرده اذا ما اضطر الى الهروب من أيدي الرقابة .

حقا ، انه مدين لصاحبه بالشيء الكثير . ولكن المخاطرة يتحملها وحده وهذا ما لا قبل له به . لو أن صاحبه يتفضل بين الوقت والآخر ويساعده على الانتشال ، لاعترف بالجميل ، ولقبل اقتسام النقود معه . أما وانه لم يعد يهتم الا بنفسه ، وبالفتاة التي صارت تصحبه كل مساء ، فانه سوف

يضرب صفحا عنه . القرار اذن حاسم . انه يدرك ما ينتظره من ضرب وركل ، بل ان صاحبه قد يلجأ الى المنتشلين الآخرين فيعهد اليهم بتأديبه أو بصرفه عن أماكن الانتشال التي يرتادونها ، غير أنه لن يبالي بذلك كله . النقود نقوده ، والمخاطرة تحملها بمفرده ، وليس من حق أحد أن يعترض سبيله بعد اليوم . ودون وعي منه ضرب الارض بقدمه ، فأثار ماء البركة الصغيرة التي يوجد واقفا فيها .

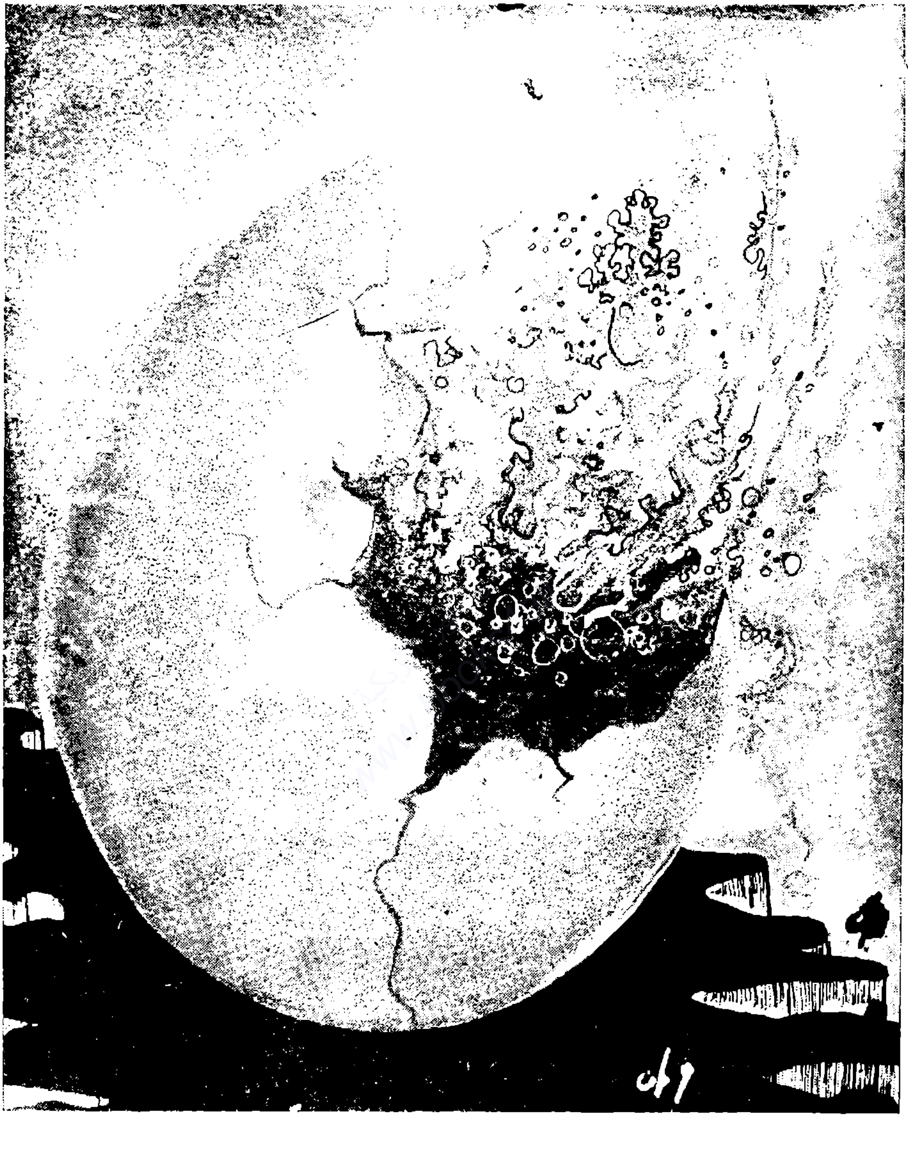
المطر يخف الآن . وكل شيء فيه مبلل . ظهره مقوس أكثر من المعتاد ، ورأسه مائل الى الامام ، غير أن عينيه البراقتين تراقبان كل شيء فى الطرف المقابل . يده اليمنى تقبض على القطع النقدية كلها فى جيبه . انه يحس بها تنزلق بين أصابعه وفى راحة يده من أثر العرق ، يشعر وكأن بخارا يتصاعد منها ، فتسرى اللزوجة فى رسغ يده ، ويتوقف عند مدخل الجيب . هذه النقود ملك له ، ولن يأخذها أحد منه مهما كان الحال . لقد تنقل بين أربع حافلات فى سبيلها . وتسللت يده الى قفة عجوز فلم يجد فيها شيئا سوى الخضر . لقد كان محظوظا مع تلك الفتاة الغليظة الشفتين . رآها تثرثر مع صاحبة لها ، ولم يجد صعوبة فى دس يده فى حقيبتها الجلدية السوداء . وود فى تلك اللحظة أن يبتسم بعد أن تذكر زعيق الفتاة داخل الحافلة عندما اكتشفت أن حافظة نقودها انتشلت منها. النقود ملك له اذن ، والمخاطرة تحملها وحده . فلينفخ صاحبه فى الريح .

المطر توقف عن الهطول . ولم يجد الامر غريبا . الغرابة فى أن ينزل المطر فى عز الصيف . الساحة صارت ملتمعة الآن تحت صفحة الماء الرقيقة . أحس بسرواله القصير ينزلق قليلا تحت الركبتين فقد شبع ماء وصار ثقيلا . شيء واحد بقي دون تغير . انها النقود فى قبضة يده داخل جيبه . الدفء ينبعث منها رغم اللزوجة التي بدأت تسري فيها . انها ملك له وسيبرهن على ذلك .

وخطا خطوات ثابتة فى اتجاه الطرف المقابل وأخرج يده اليسرى فعدل من سرواله . لخطواته وقع غريب على صفحة الماء الرقيقة ! ذلك الوقع يحفزه على الثقة بنفسه . ودخل منطقة الظلمة دون تردد ، وهو ينقل عينيه البراقتين فى أرجاء الجدار . رائحة كريهة زخمت أنفه . انها رائحة البول المختلطة بالمطر . وازداد تقدما ، وهو يحاول أن يستدل على مكان صاحبه حتى وازى أصل الجدار . ثم انه دار حواليه وهو يفحص العتمة فلم تحدث أية حركة ؛ ولم ينطلق ذلك الصوت المعتاد الذي يستقبله كل مساء . لقد تأخر طويلا ، ولعل صاحبه لم يرد انتظاره لأن فتاته كانت معه . حبذا لو أنه وجده اللحظة لكان حسم الامر معه ، اللعين يعتقد أن كل شيء جاهز كالعادة ! انه لم يغامر حتى بالانتظار فى المطر ، فكيف يخاطر بنفسه فى الحافلات ؟

والتفت ناحية الساحة الواسعة فبدت له ملتمعة . فى البعيد كانت الانوار ملفوفة فى غبش من الضباب الليلي الخفيف والعمارات متكدسة فيما بينها أكثر من العادة . وابتسم وهو يقلب القطع النقدية داخل جيبه ، دون أن يحيد بعينيه عن العمارات البعيدة . هذه النقود ملك له ما دام يخاطر فى سبيلها . والمعركة لابد أن تدور غدا أو بعد غد بينه وبين صاحبه . الكلمة الاخيرة ستكون له وسيقولها ، ثم انه استدار ، ودلف من ثقب بالجدار العالي ثم انزلق نحو أحد الازقة فابتلعته العتمة .

1976



المستحيل والممكن

الماء في المرفأ الصخري الصغير عكر كأنما ألقيت فيه كتل هائلة من الطين . قوارب الصيد ترسو جنبا لجنب ، غير مشدودة الى السور وقد برزت في حنياتها رؤوس الحراب . الشباك ملقاة وسط القوارب في غير نظام . أصوات عديدة تنطلق دون أن تحمل معاني في طواياها . الكل واقف على أهبة الخروج للصيد ومع ذلك فلا أحد يجرؤ على القفز الى أحد القوارب . الاصوات تزداد قوة وحدة عندما يستفسر أحدهم عن هذا الوحش البحري المجهول . وما من جواب يصدر عن أحدهم اللهم سوى همهمات مصحوبة بحركات غير مضبوطة سرعان ما تموت وهي في الهواء . الاطفال بدأوا يتجمعون على مبعدة من آبائهم . لقد أدركوا ان هناك سرا وراء ذلك اللغط . من عادة الصيادين أن يقفزوا الى قواربهم في مثل هذه الساعة من الغروب دون ثرثرة . ولكنهم ، هذه العشية ، ترددوا في المنبطح الصخري من المرفأ . اقترب الاطفال منهم وكلهم آذان صاغية . انها قصة ذلك الوحش البحري الذي تحدثوا عنه في مثل هذا الموسم من السنة الفارطة . أتراه محض خرافة أم حقيقة ؟

بعض النسوة الفضوليات أطللن من نوافذ بيوتهن الواقعة في أعلى القرية البحرية . البعض منهن رحن يتبادلن حركات مستفسرة .

عميد الصيادين في القرية لا يجرؤ على التلفظ بكلمة . لا يريد أن يتهم بالجبن . لقد زعم في السنة الفارطة أنه رأى الوحش البحري بأم عينه ، غير أنه لم يستطع أن يقدم وصفا عنه . ومنذ ذلك اليوم وهو يحجم عن

الخوض فى أحاديث لا طائل من ورائها . كاد رفاقه يومها أن يتهموه بالجبن لولا أنه تحداهم بالعودة الى تلك النقطة النائية من البحر حتى يتثبتوا من صحة زعمه . مساعده التزم الصمت هو الآخر . انه لا يريد أن يوقع صاحبه فى أمر لا تحمد عقباه ، فهو لم ير شيئا من ذلك الوحش البحري . كل ما يعرفه عنه عبارة عن وأصاف تعلمها من صاحبه . قال له يومها ان البحر هاج وماج دفعة واحدة ، وعلت الفضاء كتلة ضبابية تعذرت معها رؤية الافق . ووقفت معرفته بالوحش البحري عند هذا الحد ، بل انه لم يجرؤ على أن يستفسر صاحبه أكثر .

ظلمة خفيفة بدأت تسربل القرية الواقعة على جانب من صخرة هائلة تطل على البحر . أشجار التين التي تنبت فى الجانب الآخر من الصخرة تحولت الى هياكل سوداء وكأنها تمارس ألاعيب شيطانية . السماء فوق القرية لا تريد أن تفصح عن لونها ، فلا هي رمادية ولا هي زرقاء قاتمة . هذا اللون يكرهه الصيادون . كانت السماء بهذا اللون يوم وقعت حادثة الوحش البحري فى الموسم الماضي . وبعدها أمطرت بعنف حتى كادت تغرق قوارب الصيد لولا أن البعض تداركها . من يدري لعل تلك الزوبعة الضبابية التي يثيرها ذلك الوحش ، وتنعقد لمدة طويلة فوق سطح البحر تزحف نحو الشاطيء فتغير من الطقس .

ليس هناك صياد واحد يجرؤ على التصدي لهذا الوحش . ساعة الخروج للصيد دقت منذ لحظات ، ومع ذلك فالثرثرة لم تنقطع . الاطفال هم الآخرون انضموا الى الحلقة ، وراحوا يلقون بأسئلتهم ، أو يعلقون على هذا الوحش البحري المزعوم . البعض منهم يقدم تفسيرات يحاول أن يكذب بها مزاعم الصيادين . معلم المدرسة هو الذي لقنهم مثل تلك التفسيرات . انه الوحيد الذي يستطيع أن يحفز الصيادين على الخروج ،

فهو ، فيما يقال ، لا يؤمن بالخرافات . لقد قرأ العديد من الكتب عن البحر وصار له المام به وبالحتيان التي تعيش فيه . لم يسبق له أن قال شيئا عن مثل هذا الوحش البحري . ولكن أين هو يا ترى ؟ لم يا ترى لم يحضر هذا المساء كعادته لتوديع الصيادين ؟ لعله منشغل بوضع الكتاب الذي عقد العزم على تأليفه . انه كتاب يدور حول البحر والصيد . من ذا الذي يذهب ويناديه ؟ الاطفال يتبادلون النظرات فيما بينهم . انه معلمهم ، ومن واجبهم ، ألا يزعجوه بمثل هذه الخرافات . لقد قال لهم انه يمكن القضاء على الخرافات بالعلم .

قفز أحد الاطفال ، وطلب من رفاقه أن يصحبوه الى بيت المعلم . تردد معظمهم ، ولكنهم سرعان ما ساروا وراءه ، فقد كان زعيمهم فى القرية . الصيادون ظلوا فى أماكنهم يثرثرون . لم يدر أحدهم بمبادرة الاطفال . بل انهم لم يتعجبوا كيف تفرقوا عنهم .

الليل ينتشر بسرعة فى المرفا الصخري . والافق كتلة من ضباب . لا يكاد الصيادون ينظرون ناحيته حتى ترتد اليهم أنظارهم وهي مليئة بالتردد والخوف . من يدري ! لعل الوحش البحري يوجد خارج صخور المرفا ! لا يذكر أحد منهم كيف عقدوا العزم خلال الموسم الماضي على معاودة الخروج للصيد بعد حادثة الوحش البحري . كل منهم عاد الى قاربه فى ظرف أيام قليلة . لعل صفاء الجو ساعدهم كثيرا على الخروج ثانية الى البحر العريض .

بعض النسوة فى أعالي القرية أشعلن القناديل فى الازقة . انهن يتبادلن التعليق على ما حدث . كلماتهن مشحونة بالخوف على الصيادين . انهن يتجمعن فى الازقة ، وسرعان ما يتزايد عددهن . هو ذا الموكب يتحرك الآن نازلا نحو منبطح المرفا . من الاكيد انهن سيمنعن أزواجهن من

الخروج حتى تنجلي الغمة ، ويتضح أمر هذا الوحش البحري الذي جاء يقلقهن للمرة الثانية .

الصيادون كفوا عن الثرثرة . انهم يستعدون لصد النساء واعادتهن الى دورهن . لن يزدن الامر الا خطورة . عميد الصيادين يتقدم الجمع الآن ، ويأمر النسوة بالعودة الى دورهن بصوته الجهير . غير ان اوامره تذهب سدى ، فقد ضاعت وسط لغط النسوة . احداهن تشير بسبابتها الى العميد متوعدة مهددة . الوحش البحري خطير ، ولا يمكن مقارعته . حرام على الصيادين أن يخرجوا ، وهم يعلمون ان الموت ينتظرهم فى البحر العريض . عميد الصيادين يقترب من جمع النسوة ويحادثهن بصوت كله عنف هذه المرة . ولكن أنى للكلمات العنيفة أن تقهر رعشات الخوف . النسوة أحطن الآن بالصيادين ، لكأنما اتفقن فيما بينهن على سد منافذ الخروج دونهم .

ساحة المنبطح الصخري تسودها العتمة . القناديل التي تحملها النسوة لا تكاد تنير . أصواتهن تختلط وتتعالى ، والصيادون واجمون وسط الحلقة . لقد وقع فى روعهم فعلا أن الخروج للصيد ليس يعني سوى الموت بين أشداق الوحش البحري . كلام النسوة زادهم خوفا على خوف .

طلب أحد الصيادين من رفاقه أن يعمدوا الى شد القوارب ، ما داموا قد أحجموا عن الخروج ، فما تحرك واحد منهم . لعل الوحش البحري قد تسرب داخل المرفا . النسوة وجمن فى أماكنهن ، فيم كانت وشوشة البحر تزداد تثاقلا وهيبة . والصيادون تبادلوا نظرات مشحونة بالخوف وسط أنوار القناديل الكابية . فى غمرة خوفهم ذاك نسوا أن يشعلوا الفنار ، فغرق كل شيء فى ظلام زيتي ثقيل . من له الشجاعة الكافية يا ترى فيربط القوارب الى السور ؟ شعر العميد بالنظرات تنهال

عليه وسط الظلمة ، غير أنه لم يتحرك من مكانه . لقد سبق له خلال الموسم الفارط العريض ، لذلك فهو لا يريد هذا المساء أن يراها تنعقد هنا داخل المرفا الصخري . اللعنة اذن على البحر والاسماك وكل ما يحويه فى بطنه العميق المخيف . لقد طلب منهم أحد شيوخ القرية فى الموسم الفارط أن يهجروا حرفة الصيد ويتحولوا الى فلاحين مثل أجدادهم ، فلم يأخذوا بنصحه . وها هي نفس الفكرة تراودهم فى هذه اللحظات بالذات . لم الخروج كل يوم الى البحر العريض وتجشم مخاطر الحيتان الكبيرة والوحوش البحرية ؟ أليس يجدر بهم أن يعودوا الى سيرة الاجداد ويحمل كل واحد منهم فأسه ، ويعانق الارض صباح مساء ؟ وأنى لهم ذلك ! لقد أجدبت الارض منذ زمن بعيد ، وعليهم أن يصطادوا من الحوت ما يكفيهم لسنتين كاملتين حتى يستطيعوا ترقيده فى الخوابي ، فتتسنى لهم بذلك العودة الى الارض الميتة ومعالجتها ان استطاعوا لها علاجا .

وما كان لصمتهم أن يطول ، ذلك أن الاطفال كانوا ينزلون نحو منبطح المرفا ، والضحكات تتعالى منهم وسط العتمة . وتلفتوا ناحية الاصوات والضحكات ، وهم لا يكادون يفهمون ما يحدث . قلوبهم كانت تخفق بعنف . النسوة كن تركن الحلقة ، وتجمعن جانبا . موكب الاطفال يزداد الآن اقترابا . وأصواتهم تخفت لكأنما يحاولون أن يكتموا ضحكاتهم . سكون مبهم يسود المكان لا تقطعه الا خطوات الاطفال ، وارتطام البحر بالصخور خارج المرفا . وان هي الا ثوان قليلة حتى تجمدت خطوات الاطفال فى المنبطح . شاب لا يكاد يتجاوز الثلاثين فى مقدمتهم . قميصه مفتوح على صدره . وعيناه تطرفان وسط أنوار القناديل . لعله كان نائما .

لم ينتظر طويلا ، فقد جعل ينقل نظراته بين الصيادين متحاشيا النظر الى النسوة . الاطفال كانوا يتبعون حركاته باهتمام وهم يشعـرون بالزهو . انه الوحيد الذي يستطيع القضاء على خرافة الوحش البحري . انطلق صوته سريعا فى بداية الامر ، فلم يفهم منه الصيـادون الشـيء الكثير . ثم انه راح يتحداهم أن يقدموا له أوصافا دقيقة عن هذا الوحش البحري الذي يتحول الى كتلة ضبابية ، فما بدرت منهم حركة . وجعل يصور لهم ما يحتويه البحر فى قيعانه من حيتان كبيرة ومخلوقات بحرية أخرى . ثم انتقل بحديثه الى الطقس وأحواله وتقلبات البحر والضباب الذي ينعقد فى مثل هذا الموسم نتيجة لذوبان الثلوج وهبوب الرياح . ومع ذلك ظل الصيادون على رأيهم فمن المستحيل أن يصدقوا حكاية ذوبان الثلوج هذه ، وهم لم يشهدوا تساقط الثلوج فى هذه الناحيـة منذ عهد بعيد جدا . ولم يجد المعلم بدا آخر الامر من اقتيادهم الى كوخ المراقبة القائم فى الطرف الآخر من المرفا لكي يقدم لهم الشروح عن الكتلة الضبابية . غير انهم ظلوا على خوفهم رغم اقتناعهم هذه المـرة بأقوال المعلم . ثم ان الاطفال ضاقوا ذرعا بتردد آبائهم ، فانطلقوا يتبادلون التعليقات الساخرة عن الوحش البحري ويحاولون أن يرسموا له صورا مضحكة . وبعد أخذ ورد عقدوا العزم على الخروج الى البحر العريض حينما يصفو الجو تماما . ولم يجد المعلم هذه المرة بدا من الاذعان لهم .

فى تلك اللحظات كان المرفأ الصخري قد تلفع بالضباب ، فى حين أن النسوة تجمعن دون أن يصدر عنهن أي كلام . لقد تحول الخوف من الوحش البحري الى عادة راسخة فى أنفسهن . أما الاطفال فقد انزلقوا من الكوخ واحدا بعد الآخر وفى نفوسهم رغبة جامحة للخروج الى البحر العريض . هذا الوحش البحري المزعوم سيظل يهدد القرية وحياتهم فيها ،

ولن ينتهي أمره الا حينما يصيرون كبارا ، لأنهم بدأوا يقرأون الشيء الكثير عن البحر .

1977

مَوتُ صَاحِب الجَواد

اليوم مات العم ابراهيم !

فىالبداية ، قالوا عنه أنه مات موتا عاديا ، غير أنني كنت أبعد ما أكون عن تصديق مثل هذه الاقاويل . الحقيقة هي أنه سقط فى الدرج سقطة عنيفة ، وراح فى غيبوبة دائمة لم يفصل بشأنها الا رأى الطبيب القاطع : « نزيف مفاجيء فى الدماغ » . كنت أود أن أراه وهو فى النزع الاخير ، فقد قال لي مرارا انه سيموت ميتة الجياد اذا ما حان أجله . ولم يقدر لي الى يومنا هذا أن أرى جوادا يموت ، لذلك تظل هذه المقارنة على أشد ما تكون غرابة وغموضا فى نفسي .

لو تقصينا الامور معا لوجدنا أن العم ابراهيم مات قبل هذا اليــوم بسنوات عديدة . فمنذ أن صدر القرار بمنع عربات الجياد من العمل فى طرقات العاصمة شعر بأن زمنه ولى الى غير رجعة لذلك عمد الى بيــع حصانه بثمن بخس فى سوق الحيوانات ، أما العربة الضخمة فلا أحد يدري شيئا عن مصيرها حتى الان لانه لم يحدثنا عنها لا فى الحي ولا فى أي مكان آخر ، بل ان ولديه ظلا فى ريبة من أمر تلك العربة الشاحنة كما كان يروق له أن يسميها . وفى ظرف أسابيع قليلة انكمش العم ابراهيــم

على نفسه . وهذا أمر طبيعي فيما أظن ، لانه بحكم السن التي بلغها ، لم يكن يطمع فى الحصول على عمل يرتزق منه ، خصوصا وأنه كان يأنف أن يصير عالة على ولديه . الا أن وضعه ذاك ما كان ليدوم طويلا نظرا لما كان يعتمل فى نفسه ، فقد فوجئنا به ذات يوم وهو يقـرر استخراج رخصة السياقة لانه كان قد اشترى شاحنة قديمة صغيرة ، وقر رأيه على أن يتأقلم مع الاوضاع الجديدة . وأمام هذا الانقلاب المفاجىء فى نفسية العم ابراهيم لم نجد بدا من مسايرة الامور على تواترها ، بل انه لم يدر بخلد أي واحد منا أن صاحبنا هذا قد يعجز عن نيل مراده . ولعل حدسنا ذاك راجع الى أنه كان قد تخلى عن انكماشه ، وعاد الى مرحه ، لا يكاد يتحدث معنا الا وقذفنا بنكتة عن الجياد وعن الغجـر الـذين كانـوا متخصصين فى بيعها وشرائها فيما مضى من الزمن غير انه فى واقع الامر كان فى النزع الاخير ، وهذه حقيقة غابت عنا بعض الوقت غيابا تاما . لقد فوجيء العم إبراهيم بأنه لن يفهم شيئا من أمر تلك العلامات التي كـان يعرضها عليه مدرب السياقة ، وأحس بثقل هذه الهزيمة النكراء ، فرحل عن الحي مع ولديه وغاب عنا خبره وقتا طويلا .

فى الحقيقة ، لم يكن العم ابراهيم راضيا عن سلوك ولديه . كان الاكبر ذا حول « بفتح الواو » ظاهر ، مولعا بالحيوانات حد الهوس ، وخبيرا فى المقالب الكلامية . وما أكثر ما كان يصدر تعليقاته الجارحة عن أبيه وأمه . فالاب كان بمثابة الكاردينال فى نظره أما الام فكانت عبارة عن الاخت المسيحية الطيبة ، وكان الاصغر سكيرا بارعا فى سرقة السيارات ، لا يكاد يخرج من دار الشرطة الا ليدخلها ثانية بتهمة أخرى . وبلغتنا الاخبار أن العم ابراهيم توصل الى اتفاق مع ولديه . فقد كون ما يشبه شركة صغيرة تضم ثلاثة أعوان . كان هو المسير بطبيعة الامر لانه صاحب الشاحنة ، على

أن يتناوب ولداه سياقتها للارتزاق بها ، وينال ثلاثتهما حصصا متعادلة في نهاية كل يوم .

وسارت الامور في البداية على ما يرام ، أو هكذا خيل الينا جميعا . لان العم ابراهيم صار يختلف الى الحي من حين لآخر دون أن تصدر عنه أية شكوى ، وان هي الا أيام قليلة حتى انفض الابن الاصغر عن الشركة، وآثر العمل وحده ، ولم يقل العم ابراهيم كلمة واحدة بشأنه ، فعلى الرغم من استيائه الظاهر ، كان يكن له كل الحب . لقد أفضى لاصحابه من الشيوخ بأن ولده ذاك يعيد اليه صورة شبابه فيما بين الحربين العالميتين، أيام كان ينطلق بعربته الشاحنة في أرباض المدينة صحبة زجاجة من الخمر ولا يعود الى الدار الا وقد تعتعه السكر . ولم يؤثر موقف الابن الاصغر على مصير الشركة ، بل ان الابن الاكبر وجد الفرصة سانحة لجمع أكبر حصة من المال لانه كان يستعد للزواج وصارت الارباح مناصفة بينه وبين أبيه . وما أكثر ما كان يغامر بالشاحنة في أطراف المدينة . كان ينقل عليها كل أنواع السلع ، حتى صناديق الزبالة .

وحدث ذات يوم ما لم يكن في الحسبان ، لست أذكر الاسباب بالضبط وان كنت أدري بأن وضعية المهاجرين في فرنسا كانت وراء كل شيء ، فقد تواترت الينا الإخبار بأن عددا من المهاجرين لقوا مصرعهم في احدى المدن الفرنسية اثر مجابهة مع بعض العنصريين . قد تتساءلون عن العلاقة بين العم ابراهيم وتلك الاحداث غير انني أعجز ما أكون عن تقديم الجواب ، اللهم سوى ما قاله العم ابراهيم نفسه في هذا الشأن : « الحكومة والزمن يقفان ضدي . » ويجب أن تعلموا أن الزمن في مفهوم العم ابراهيم ليس يعني سوى الناس وهم ينتقلون من طور الى آخر . الحقيقة اذن هي أنه كان كعادته مع ابنه الاكبر في ضواحي الميناء ينتظران

التفريغ حتى يأخذا الحمولة وينطلقا بها نحو أعالي المدينة . واذا بجمع من المتظاهرين يسدون الطريق العريضة فجأة وهم يصرخون وينادون بسقوط العنصرية ، وعودة المهاجرين الى ديارهم . ولم يخطر للعم ابراهيم أن الزوبعة قد تسحقه ، لذلك استند مع ولده الى أحد الجدران ، غير بعيد عن الشاحنة ، وجعل يتأمل المشهد . وفى تلك اللحظات بالذات أوقف المتظاهرون سيارة لاحد الاوربيين وحطموها وكادوا يقتلون صاحبها لولا تدخل بعض رجال الجمرك . ويبدو أن هذه الفعلة ألهبت نفوسهم ، لذلك راحوا يهاجمون كل السيارات الواقفة منها والمتحركة ، لا يلوون فى ذلك على شيء ، ولا يفرقون بين سيارات مواطنيهم وسيارات الاوربيين . وحدس العم ابراهيم بأن دوره قادم لا محالة فتراجع عن الجدار دون أن يخطر على باله أن يطلب من ولده زحزحة الشاحنة والانطلاق بها . وان هي الا لحظات حتى كان المتظاهرون يجهزون على شاحنته بقطع من الحديد ويشعلون النيران فيها وفى بقية السيارات التي كانت واقفة الى جوارها . الغريب فى الامر أن العم ابراهيم لم يقل شيئا بل ظل جامدا مع ولده ، والعهدة فى كل ذلك تقع عليه بطبيعة الامر . وأنى لنا نكذبه وقد عقدنا المقارنة فى الحي بين أقواله وأقوال ولده ؟

فى عشية ذلك اليوم ، عاد العم ابراهيم الى الحي فروى لنا ما حدث ولعله آثر أن يعرج على مرافق شبابه وكهولته قبل أن يدخل داره ولا يخرج منها الا محمولا على النعش . وخطر لنا أن نجمع له بعض المال عسى أن نخفف عنه أثر الصدمة ، غير أننا طردنا شر طردة . لاننا لم نكن فى نظره الا مصاحبين للزمن ، وأنتم تعلمون فلسفته فى هذا المجال .

أعترف لكم أنني خادعته قبل أشهر قليلة ، فأخذت له صورة فى عقر داره . ظننت أنه سيشتمني ، غير أنني فوجئت به يحدثني عن الشبه بينه

وبين الجياد . وأدركت لتوى أنه فقد التحكم فى عقله ثم انه وصف لي ميتة الجياد وكيف تلوي أعناقها فى الهواء قبل أن تلفظ النفس الاخير . لذلك لم أجد اليوم بدا من تخيله وهو يحتضر ، ويضرب الهواء بقدميه فى حركة دائرية . الشيء الوحيد الذي لم يحدثني عنه العم ابراهيم هو طريقة دفن الجياد ، مع أنه سبق له أن دفن جوادا خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن نفق من جراء العياء . أتمنى الا يزعم ولده الاكبر ذات يوم بأنه يشبه الشاحنات ، فقد يخفى عليه آخر الامر أن يضع اللمسة الاخيرة لهذيانه وتغيب عنه كيفية دفن الشاحنات المتهالكة .

لقد نسيت أن أقول بأن العم ابراهيم كان ساخطا على قارئات الكف ، لانهن كن عاجزات عن التنبؤ بزوال دولة الجياد ، وهذا ما جعله يفقد الثقة فى كل شيء ويضرب فيما بقى له من عمره على غير هدى .

1977

البـــديل

سكون مريح فى بداية هذا الزقاق مع أن العمارات غير بعيدة الى الوراء، أشجار الكاليتوس تضيف نبرة غريبة الى هذا السكون . الزقاق غير طويل ينتهي بانعطافة قصيرة ، وبعدها تظهر المدينة رابطة فى أسافل الجبل وفى مواجهة البحر العريض .

وقفت العجوز لحظة تتأمل المنظر الذي واجهها . ليس فى وقفتها هذه أية شاعرية . نظراتها تمسح الجبل المقابل ثم تنزلق نحو المدينة رويدا رويدا وتستقر هنيهة عند البحر . القفة فى يدها اليمنى ملأى بخرق مختلفة الالوان التقطتها فى الطريق أثناء تجوالها . لايبدو أنها تصلح لشيء آخر سوى مسح الاحذية أو زجاج النوافذ . مرت عليها دقائق وهي تحدق فى الافق لكأنها تستعيد ذكرى عزيز لها غاب وراء البحر ولم يعد .

انها تعبر هذا المكان للمرة الثانية فى ظرف هذا الاسبوع . فى المرة الاولى أحست بقلق كبير وهي تحدق فى البحر ، غير أنها اليوم تلقي نظرات ذابلة على الافق . لعله وقع فى روعها أن العزيز الذي تنتظره لن يعود أبدا . أو هي تحس بأن وجودها فى هذه الدنيا محدود بالايام فقط .

حولت أنظارها نحو السلالم الاولى التي يتعين عليها أن تنزلها بعد لحظات وخفق قلبها ، فقد أحست وكأن السلالم قد ازدادت طولا . الى اليسار سور قديم ينزل مع السلالم . وتنهدت العجوز وهي تساير السور بنظراتها . وراء السور مباشرة تعالت هامات أشجار الكاليتوس دون أن تتحرك وتمنت فى اللحظة وهي تنظر لي الكاليتوس أن يعالجها الموت دفعة واحدة فيريحها من عناء الانتظار . حبذا لو ماتت اللحظة ووجدها الناس جثة هامدة . المقبرة وراء السور مباشرة ولن يطول أمر دفنها . وعاودت النظر الى السلالم لبضع لحظات ، ثم حولت أبصارها نحو الافق وقد طفرت الدموع فى عينيها .

.

الى اليمين سور قصير عريض تآكلت أطرافه . وتحت السور مباشرة جرف هار تتسلق فيه بعض النباتات الطفيلية والشجيرات المتسردة . تنهدت العجوز وهي تنظر نحو أصيل الجرف حيث تبدأ المدينة . كان هناك جسر فيما مضى من الزمن . وكان لذلك الجسر اعتبار كبير فى أعين الرجال الصناديد . فقد كانوا يعدمون فيه كل الخونة والذين يتعاملون مع السلطة ولم يبق منه اليوم أيما أثر . انها تعود بذكرياتها الى ذلك الجسر للمرة الثانية خلال هذا الاسبوع كان زوجها رجل فتوة،اذا ما تخاصم مع أحد جاء الى هذا المكان وتبارز معه . لقد ذهب ضحية الغدر وبقيت هي تستعيد ذكراه كلما مرت من هنا . أما ذلك الذي غاب وراء الافق فهي لا تدري عنه شيئا . لعله تزوج أوربية وآثر العيش هناك أو لعله يكون قد مات .

ما العمل ؟ أتنزل السلالم وتذهب الى الناحية الاخرى من المدينة ؟ ان نفسها لا تطاوعها الآن . فمن هذا المكان بالذات تستطيع أن تترقب تلك الباخرة البيضاء التي تأتي كل أسبوع من فرنسا . لعل ابنها يكون على متنها . من يدري !

عندما أبصرت الباخرة فى جولتها الاولى من هذا الاسبوع سارعت كعادتها الى الميناء عسى أن يكون ابنها قد عاد . غير أنها أحست بالمرارة عندما شاهدت تلك الجموع من السواح الاوربيين وهم يخرجون من بطن الباخرة والضحكات تتعالى منهم . ولعنت الدنيا فى تلك اللحظة ولم تستطع البكاء . أما الآن فانها لن تقوى ولاشك على الذهاب الى الميناء اذا ما أطلت الباخرة من الافق . فهناك دوخة تلازمها وتكاد لا تبصر معها شيئا . ثم ان الانفاس صارت فى ظرف اليومين الاخيرين تنقطع منها كأنها على وشك أن تلفظ الروح . قال لها الطبيب انه القلق ولم تجد بدا من أن تخلد الى السكوت أمامه وهي تحدق فيه بنوع من الاشفاق . وأدركت لتوها أنه يجهل كل شيء عن الحياة والفراق .

المدينة دونها تبدو هادئة ، والبحر يعرض صفحة رمادية . كل شيء أمامها يتسربل بغشاوة رقيقة . هذه هي بداية الدوخة . انها تعلن عن نفسها هكذا . حبذا لو ماتت الآن فى هذه السلالم ! لقد صارت أمنية لا تفارقها منذ اليومين الاخيرين . هذه السلالم بؤرة تتجمع فيها كل آلامها وآمالها ، فالافضل لها أن تموت هنا . وبحركة غير ارادية منها نزلت الدرج الاول ، فالثاني ثم انها انتبهت الى أن السلالم طويلة ، فجعلت تنظر الى أسافلها في قلق . ستلفظ الروح ان بدأت هذه الدوخة تعصف بها . وندت عنها حركة فى الهواء وكأنها تسخر من الموت . ينبغي عليها أن تنزل السلالم مهما كان الحال . فهي تفضل أن تلفظ الروح هنا ، فى هذا المكان الذي يجمع بين أطراف حياتها . هنا كان زوجها يلقي الرعب فى نفوس الخونة ، ومن هذه النقطة بالذات أبصرت بالباخرة البيضاء وهي تشق البحر نحو الشمال وعلى متنها وحيدها . فكيف يحق لها أن تموت فى ناحية أخرى غير هذا المكان ؟

عندما نزلت الدرج الثالث استرعى انتباهها شيء لم تكن تتوقعه . السور القصير الى اليمين انشق عن نبتة خضراء دقيقة . ولبضع لحظات ظلت تحدق فى النبتة دون أن تتبدد غشاوة الدوخة عن عينيها . هل يمكن لمثل هذه النبتة الطرية أن تخرج من قلب الأسمنت والتراب الاصفر ؟ ولم تتمالك نفسها من الدهشة وهي تقرب نظراتها من أصل النبتة . انها تشبه « الاخديوج » . هذه الوريقات التي بدأت تتفلطح ويتحول لونها الى خضرة شديدة هي وريقات زهرة « الاخديوج » . وفى غمرة سرورها ذاك ، نسيت ذلك الذي نشر الرعب فى هذا المكان قبل سنين طويلة وذلك الفتى الذي غاب وراء الافق . يستحيل ان تترك النبتة فى مكانها . من الاكيد انها ستموت . فقد تستند الى السور ذات يوم امرأة عجوز مثلها وتسحقها دون أن تشعر لها بوجود . يجب أن تقتلعها من هذا المكان وتزرعها فى أصيص بالبيت .

ولم تطل بها التساؤلات . فقد طرحت القفة جانبا ذاهلة عما حولها . وأنى للموت أن يدور ببالها فى مثل تلك اللحظات ؟ انها لم تفكر جديا فى العلاقة بين تلك النبتة وبين زوجها الفقيد وابنها الغائب مع ان شيئا مبهما فى سرها كان يستحثها على التفكير فى هذه العلاقة بالذات . وبحركة غير مضبوطة نزعت سوارا نحاسيا من يدها اليمنى تعودت أن تحمله لتتفادى آلام المفاصل . ثم انها ضغطت عليه فانفتح تدريجيا حتى صار عبارة عن سلك نحاسي . الدوخة بدأت تشتد عليها ومع ذلك فانها انحنت برأسها لكي تعاين أصل النبتة وراء السور . انها تعلم أن مثل هذه الانحناءة خطيرة قد تفقدها التوازن ، ولكنها لم تكن لتفكر فى توازنها ذاك . يجب أن تأخذ هذا « الاخديوج » الى البيت مهما كان الثمن ! لن تتركه وسط الاسمنت فيموت اختناقا أو تسحقه امرأة عجوز . ولما تأكدت من أن أصل النبتة ليس بعيدا أدخلت السلك النحاسي فى الشق وجعلت تكشط

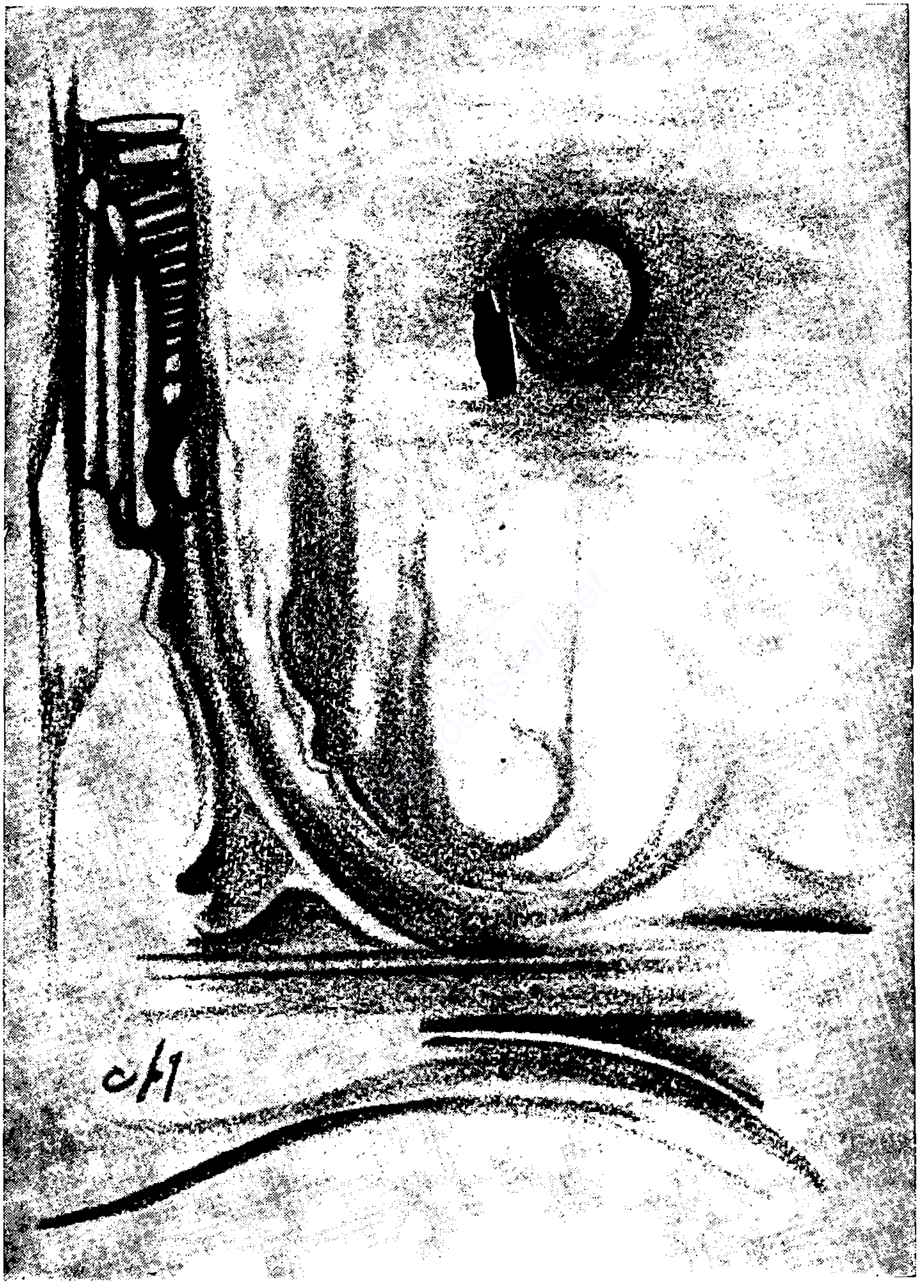
الاسمنت المتآكل بعناية . أنفاسها بدأت تخرج منها بصعوبة . وهنا أدركت بأن الدوخة تعصف بها حقا . وصوبت نظراتها نحو الافق حتى تريح عينيها من ثقل تلك الغشاوة السوداء التي تنتابها كلما اندفع الدم الى رأسها . ليس هناك شيء فى الافق الآن أو هي لا ترى شيئا . الافق مرتبط فى ذهنها بنبتة « الاخديوج » ، وابنها ليس له وجود فى هذا الافق الرمادي الذي ينبسط أمامها . وانحسرت نظراتها شيئا فشيئا لتستقر على أعالي العمارات المطلة على البحر . كل شيء بدا هامدا فى ناظريها وفى ذهنها . الدوخة لم تفارقها مع أنه من عادتها أن تخفف من غلوائها كلما حدقت فى شيء أمامها . ومر عليها بعض الوقت وهي فى وقفتها تلك لاتقوى على التفكير فى شيء معين . حتى نبتة «الاخديوج » غابت عن وجودها لبضع لحظات . انها تريد مع هذه الدوخة أن تكف عن كل حركة وتنسى كل شيء .

ولكن نبتة الاخديوج لا يجب أن تبقى هنا وسط الاسمنت ! قفزت الفكرة الى ذهنها دفعة واحدة فجعلت تهز رأسها مدللة بذلك على موافقتها . هذه النبتة لن تموت ! وأعملت السلك النحاسي مرة ثانية فى الشق . كانت يدها تتحرك بعنف ولكن فى حذر . أنفاسها مبتورة مع كل حركة تأتيها . شظية من الغبار الاصفر غليظة . ستصل الى جذور النبتة بعد قليل . الافضل الا تندفع ، فقد ينزلق منها السلك النحاسي ويقسم النبتة . وأنى لها أن تراقب حركاتها . ها هي تغرز السلك النحاسي فى التربة الصفراء الى أن يميل رأسه وهاهي الشظايا الترابية تتطاير والسلك النحاسي يصيب أصل النبتة بخدوش طفلية . وانقطعت منها الانفاس وهي تقرب ناظريها من الخدوش لتتأكد من أن النبتة لم تنكسر . ثم أنها لاحظت بأن المجال فى الشق قد صار أرحب مما كان عليه . بامكانها الان أن تعمل فى حذر أكثر . هذه المرة ، غرزت السلك النحاسي تحت أصل

النبتة مباشرة ولم تكن فى حاجة الى أن تضغط بكامل قوتها التربة طيعة فى هذا المكان من السور وليس من الغريب أن تختار هذه النبتة مكانا لها بالذات . وأمالت السلك النحاسي قليلا الى الامام ثم انها سحبته برفق واذا بالنبتة تطلع شيئا فشيئا وسط كتلة من التراب صغيرة مكورة . وخيل اليها من الفرحة أن الدوخة قد زايلتها دفعة واحدة غير انها ما أن تراجعت حتى فقدت توازنها وسقطت على ظهرها فوق الدرج دون أن تتخلى عن النبتة . لم تكن السقطة قوية ، فالالم فى ظهرها كان محتملا . ثم انها جعلت تلم كتلة التراب حول أصل النبتة حتى لا تجف الحياة فيها ريثما ترجع الى البيت وتعيدها الى التربة . وأخذت خرقة من القفة ولفت بها النبتة وهي تمسح العرق عن جبينها بساعدها الايمن .

عندما قامت من مكانها لم ترد أن تنظر الى السلام دونها . فهي تدري أنها لاتزال طويلة ، بل حدقت فى الجرف تحت أصل السور ، ثم مسحت الافق الرمادي بعينين مثقلتين . لن تعود بعد اليوم الى هذا المكان ! لقد بدأت تعتقد أن نبتة الاخديوخ هذه سوف تعوض ذاك الذي راح ضحية الغدر فوق الجسر وذلك الذي غاب ذات يوم وراء الافق على متن باخرة بيضاء .

1977



مقطع من جدارية الفراغ

ـ اللاز بين يدي .. فمن يتحدى ؟

وبحركة من يده اليسرى مسح كل القطع النقدية من أطراف الصخرة المدببة دون أن تحدث له أية خدوش . مع الحركة انطلقت من أفـواه الاطفال شتائم فى كل اتجاه . ودفع كل واحد منهم بيده الى جيبه ليسحب كمشة من النقود حتى يستمر فى اللعب .

الشمس تقع على رؤوسهم مباشرة ، والبحر على مقربة منهم يمتد صامتا رقراقا حتى الافق . هذا المكان بين الصخور يقيهم شر الاعين الناقمة . وكل من غامر هنا من أهل المدينة ظلم نفسـه . عـلى بعـد أمتار منهم استلقى خمسة فتيان فوق منبسط صخري حول بضع زجاجات من الخمر . وفى مواجهة البحر جلس صياد عجوز يحدق فى خيط قصبته وهو يتدلى نحو الماء .

ـ ما رأيكم لو رفعنا المبلغ ؟

ـ كـلا ..

وجعل يخلط الاوراق بعض الوقت ليوزعها عليهم ، فالتمعت عيونهم حذرا . تردد كل واحد منهم قبل أن يقامر بحصته على احدى الاوراق . النقود المتوفرة فى جيوبهم سوف تنزلق منهم وتذهب الى جيب زعيمهم هذا ذي العينين البراقتين . ليس لهم من سبيل آخر سوى اللعب الصريح . انهم لن يقووا على غشه ، فعيناه تترصدان أدنى حركة مشبوهة من أحدهم . النقود تنطرح على الاوراق وتتلهف النفوس هنيهة ، ثم تعود الى حالتها الطبيعية .

ـ ورقة السلطان .. هيا ارفعوا أياديكم ..

هذه المرة يلتقط القطع النقدية واحدة واحدة ، فيبلغ التذمر أقصاه بين الاطفال ويقوم أحدهم من مكانه ويتبول الى صخرة ، بينما يعمد آخر الى اشعال سيجارة ، يأخذ منها نفسا ويوزعها على رفاقه . يبدو أن حركة الاطفال قد استرعت انتباه أحد الفتيان هناك . هو ذا يقوم من مكانه فى تثاقل ، ويتجشأ ، ويحاول أن يحدق فى جماعة الاطفال .

الصياد العجوز يلتفت صوب الفتيان ويبصق خفية . ثم يغرز قصبته بين الصخور ، وينزلق الى الماء ليتوضأ . الفتى المخمور يتقدم ببطء ، وهو يحكم شد حزامه . غير أنه يتوقف فى نصف المسافة ، ويصوب نظرة غاضبة فى اتجاه المدينة التي تظهر عن بعد . أصحابه يتندرون عليه . ثم انه يتقدم نحو الاطفال الذين عاودوا التجمع حول الصخرة المدببة .

نفوس الاطفال غير مطمئنة الى هذا الزائر . انهم لا يخافون سكره ، انما يكرهون تلك النصائح التي تنطلق من أفواه الناس كلما انعقد شملهم فى هذا المكان . لقد ابتعدوا عن المدينة فما بال الناس لا يتركونهم وشأنهم ؟. فى الايام الماضية كانوا يقامرون فى بسطة سلم جانبي بأحد الاحياء ، فانتهرهم السكان وألبوا عليهم الشرطة . وانتقلوا بعدها الى

المقامرة تحت جدار كنيسة مهجورة فما سلموا من تقولات الناس . واستقر بهم المقام هذه الايام عند شاطيء البحر دون أن تكون بهم ايما رغبة في تقليد هؤلاء الذين يفدون على المكان لشرب الخمر .

وفي ثواني معدودات ، اتفقوا فيما بينهم على مواجهة الفتى المخمور ان هو جاء ليعكر عليهم صفو اللعب شريطة ان يحصل كل واحد على قرض من زعيمهم الذي ربح الحصة للها قبل قليل . هذا الشرط معقول ! ها هو الطفل الساحر يخلط الاوراق دون أن يعير اهتماما للزائر الذي انطلقت رائحة الخمر من فمه دفعة واحدة . انه يطرح الاوراق الان ، وينتظر ان يضع كل واحد من رفاقه بعض القطع النقدية عليها . بعض الثواني تمر ، ويزداد الزائر تحديقا في الاوراق ، ثم يدفع يده الى جيب سرواله بحركة غير مضبوطة ، ويسحب بعض القطع النقدية :

ـ سوف ألعب معكم ..

ولم يبد عليهم أي اعتراض ، لان ما كانوا يخشونه لم يحدث . لم لا يفسحون المجال دونه ، فلعله أن يكون مليئا بالقطع النقدية ؟ تبادلوا نظرات عجلى فيما بينهم ، وهزوا رؤوسهم موافقين . ثم ان الطفل الساحر أضاف بعض الاوراق حتى يتمكن الزائر من اللعب . وبعد هنيهة كشف عن الورقة التي في حوزته :

ـ هذه أعلى ورقة في اللعب ..

ومسح الصخرة المدببة بصورة تلقائية من يده ، وهو يحدق في الزائر المخمور . وتسمرت عيناه في عينيه ، فقرأ فيهما الغضب :

ـ انك تغش في اللعب ..

ـ كــلا ..

ـ اتركني أوزع الورق .

ـ كـلا ..

في هذه اللحظات ، كان الصياد العجوز قد طرح قميصه على منبسط صخري مجاور ، واتجه نحو القبلة .

ـ الله أكبر ..

وتوقف الجميع عن الكلام ، وراحوا يحدقون في الصياد العجوز وهو يرسل الآيات همسا . وظلوا على هذه الحالة حتى انتهى العجوز من صلاته ، وعاد الى مكانه فوق الصخرة ليستأنف الصيد .

الشمس تزداد حرارة رغم انها تنزلق نحو العصر . والصمت يرين على جماعة الاطفال . انهم متوفزون بموجب الاتفاق الذي تم بينهم . ذلك أن الزائر المخمور بدأ يهدد ويتوعد لأنه خسر بعض القطع النقديـة . وحدسوا من النظرات المتبادلة فيما بينهم انه ينبغي استرضاؤه حتى يواصل اللعب فيخسر كل ما لديه . وعاد الطفل الى خلط الاوراق ، غير أن الاطفال فوجئوا بأحد رفاق الفتى المخمور يقف عند رؤوسهم ليتفرج على اللعبة ، قال الطفل الساحر بلهجة آمرة :

ـ لسنا في حاجة الى متفرجين ..

فقاطعه الفتى المخمور :

ـ ولم أيها الغشاش ؟

ـ هذه هي قواعد اللعبة ..

لم يقل الزائر الثاني كلمة ، فقد كانت عيناه نصف مغمضتين من السكر، غير أن الفتى المخمور ضرب كفا بكف ، وجعل يرقص وسط النتوءات الصخرية فوقع أرضا . ثم انه جعل يصرخ من أثر الصدمة الكلامية :

ـ مبروك عليك يا دنيا .. الاطفال يحكمون العالم ..

وحاول القيام فعجز ، غير أن صاحبه انحنى ليساعده على الوقوف فانطرح الى جانبه . هذه المرة ، كان الاطفال قد وثبوا من مكانهم ، واستعدوا للمجابهة . كانوا قد التقطوا الحجارة ، وتركوها على مقربة منهم تحسبا لأي طارىء . لم يظهر عليهم انهم يريدون الفرار فالاسلحة فى آيديهم ، ثم ان هذه الصخور هي المكان الوحيد الذي بقي أمامهم للانفلات من قيود المدينة . ينبغي عليهم اذن أن يتحصنوا فى هذا المكان .. اقترب منهم الصياد العجوز ، وراح ينظر اليهم بشفقة . فما قال أحدهم كلمة . المخموران اعجبتهما الرقدة فوق النتوءات الصخرية فلم يتحركا . وبقية الفتيان الآخرين انزلقوا تحت صخرة كبيرة يتفيأون ظلها دون أن يهتموا بما حدث . قال الطفل الساحر :

ـ عد الى مكانك ايها العجوز ..

ثم انه صعد فوق صخرة حتى يشرف على الجميع . وصوب نظراته نحو المدينة البعيدة ، وبصق بصقة قوية فى اتجاهها :

ـ لو ابتعدنا عن هذا المكان لما بقي أمامنا سوى اللعب فوق سطح الماء ، وبعدها يتعين علينا أن نقطع البحر نحو الشمال كما فعل آباؤنا .. جعل الصياد العجوز ينظر الى الطفل وكأنه ازاء مجنون وحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال :

ـ اللهم استرنا من هذا الجيل ..

فى هذه اللحظة أحس المخموران بلسعة الشمس فى عيونهما ، فقاما متثاقلين . وتوثب الاطفال للدفاع عن أنفسهم ، غير أن الزائر الاول طمأنهم :

ـ سوف نلعب جميعا .. لن يكون هناك متفرج ..

والتفت الطفل الساحر نحو الصياد العجوز :

ـ هل تسمع ؟.. لن يكون هناك متفرج ..

وجحظت عينا الصياد العجوز .. ولعله اشتهى أن يوجه صفعة قوية على خدهذا الطفل اللعين . فقد عض أطراف شفته السفلى ، وارتعد وهو فى وقفته تلك . غير ان الطفل حدجه بنظرة متسائلة ساخرة وقال :

ـ أين عكازك أيها العجوز ؟

ـ ليس لي عكاز ..

وأطلق الزائر الاول ضحكة قوية ، ثم صوب نظراته نحو المدينة ، وكأنه يعقد المقارنة بينها وبين الصياد العجوز :

ـ انك تشبه هذه المدينة التي تريد أن تتحرك دون آن يكون لها عكاز قوي تستند اليه ..

ولم يفهم الاطفال شيئا من هذه المقارنة الغريبة ، وظلوا على وقفتهم تلك والحجارة فى قبضاتهم ، غير أن الطفل الساحر عاود السؤال :

ـ أين عكازك أيها العجوز ؟

ـ اسكت يا ابن الزانية ..

ودار الطفل حول نفسه فى نوبة شديدة من الضحك .

ثم خاطب الصياد العجوز بصوت متقطع :

ـ تصلي وتسب .. يا للمهزلة ؟

عدوى الضحك تسري فى الجمع كله . وسرعان ما يبادر الزائر الاول الى مخاطبة الصياد العجوز :

ـ هل سمعت ؟ لن يكون هناك متفرج ..

ويتحلق الجميع حول الصخرة المدببة فلا يجد الصياد بدا من العودة الى مكانه أمام هذا التغير الطاريء فى حركة الاشياء من حوله .

1978

فهرس

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مركب الطباعة ـ رغاية
الجزائر : 1981